

القسم الرابع الحكم الاسلامي

ايام الدولة الاغلبية

نشأة الدولة الاغلبية — وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بتلو هذه الآية الكريمة يوم الفتح الاكبر ، وهو يحطم الاصنام داخل البيت الحرام ، واضعاً بذلك حداً فاصلاً بين هدي الاسلام وضلال الجاهلية ، قائماً بذلك عهداً جديداً في تاريخ الانسانية هو عهد النور والمدنية الحقة ، عهد تحرير الفرد والجماعة من رقة الذل والعبودية لغير الخالق ، عهد تحرير العقول من الاوهام والباطيل ، عهد التساوي الحق الذي لم ير له العالم قبل ذلك ولا بعد ذلك مثيلاً .

التهمت يومئذ نيران الثورة العالمية في سبيل التحرير والمعرفة ، بحمل رايها رفيعة وهاجة قوم اسلموا لمحمد وآمنوا بما جاء به من الهدى ودين الحق فتدفقوا سيلاً نورانياً جارفاً يكتسحون الظلمات ويدكون اسس القيصرية والكسروية ، وقيمون على تلك الاتقاض البالية عدل الاسلام وحرية الاسلام واخوة الاسلام .
وانه لم تكد تنقضي ثلاثة ارباع القرن على هجرة الرسول الاعظم حتى كان ما اريد ان اسميه « امبراطورية الاخوة الاسلامية » يشمل فضلاً عن بلاد العرب العراق وفارس وما وراء النهر وبلاد الشام ومصر وطرابلس وشمالنا الافريقي حتى امواج المحيط الاطلسي .

على ان اصعب الفتوحات الاسلامية مراساً ؛ كان بلارب فتح اقطار هذا الشمال الافريقي ، وذلك لبعدها من جهة عن مركز الخلافة الاسلامية ، بالمدينة كان

او بدمشق او بغداد ، وصعوبة المواصلات بين قلب المملكة ومصدر الامر والنهي وبين هذه البلاد القائية ، ولأنها من جهة اخرى كانت تسكنها امم البربر الالية ؛ وهي مجموعة اقوام ما وهنت امام جبروت الظالمين وما ضعفت قواها تجاه اربابهم وبطشهم الشديد ؛ وما استكانت لسلطان الاستعباد ايا كان مصدره ؛ وسواء جاءت من رومة اغلاله او صبت في بيزنطة فيوده .

فالبربر على تفرق شملهم وتخاذلهم كانوا اكثر الناس استماتة في سبيل الحرية واشد الناس تضحية في ميدان الاستقلال ؛ ولقد كانوا طيلة العهد الوندالي يمسون بين ايديهم زمام امورهم ؛ وقد تعاونوا مع اولئك الفاتحين الهمج ، على تخريب ما شاده الرومانيون لانفسهم بهذه الديار من معالم وآثار ، ثم كانوا طيلة العهد البيزنطي الخرب بباشرون داخل بلادهم مقاليد الحكم تاركين لرجال بيزنطة الاحتلال العسكري والادارة الاسمية والرمزية .

فلا غرو ان رأينا رجال البربر من جبال طرابلس الى كتلة الاطلس يقومون مرة اثر اخرى ضد غارات العرب الفاتحين منذ غزوة عبد الله بن ابي سرح سنة ٣٠ الى ان تمهد الامر نهائيا للفاتح الاكبر موسى بن نصير حوالي سنة ٩٠ هـ (١) فنحن نرى ان فتح العرب للمغرب قد استغرق من جهودهم زهاء الستين سنة واستنزف من قواهم خيرة الجند وجلة القواد ؛ كما وية بن خديج وعقبة بن نافع العظيم غالب كسيلة ومؤسس القيروان وحسان بن النعمان قاهر الكاهنة وغيرهم من ابطال العرب واشبال المسلمين ؛ ولقد كان البربر ان خسروا المعركة اظهروا الانقياد والطاعة عن مضض ؛ فلا تكاد تتغير الحالة بتغير عامل من العمال او بتمرد

(١) في سنة ٩٦ توفي بدير مروان الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وكانت ايامه من اسعد ايام الدولة الاموية ؛ فيها تم فتح اسبانيا وجنوب فرنسا ، وبلاد الترك وفتح القائد محمد بن القاسم الثقفي اكثر بلاد الهند .

في الجند ، حتى يعودوا الى الثورة والعصيان مرتدين عن الدين في اكثر الاحياز .
بقيت الحالة كذلك بين صفو وكدر ، وامن وانتفاض ، طيلة ايام الامويين
واوائل عهد العباسيين .

وانه لمن اكبر نكبات هذا الشمال الافريقي ، سواء في اول العهد الاسلامي ،
او في غيره من العهود : كثرة تداول الولاة عليه ، فلا تكاد تستقر به قدم
واحد منهم فيدرس حاله ويدرك قيمته ، ويختلط بشعوبه واممه ، وياخذ بأسباب
ال عمران والانشاء والتكوين حتى تلعب في مركز الدولة البعيد الدسائس والفتن
وتعمل السنة السوء والوشاية اعمالها ، وتلعب الغايات النفسية او العصبية ألاعيبها
الحيثية ، فيصدر الامر بتولية عامل جديد يكون في الكثير من الاحيان عدو
العامل القديم فيفد على البلاد بمحدوه حب الانتقام ، ويسفر ذلك عن وقائع تسيـل
فيها الدماء ، ويستفيد البربر الواقفون بالمرصاد من ذلك ، فتكون الثورة ويكون
الانتفاض .

انما الى جانب هذا الاضطراب في السياسة كان الدين الاسلامي على يدرواده
الامجاد يستقر استقراراً متيناً في البلاد .

ولقد فهم البربر اخيراً ؛ بعد طول اختلاطهم بالعرب ، واخذهم الدين عنهم
ان هؤلاء الفاتحين ليسوا كمثـل الذين سبقوهم من الفاتحين ، فسموا اخلاقهم ونبل
عواطفهم وبساطة عيـشهم وسهولة دينهم الفطري ؛ كل ذلك يجعل بونا شاسعا بين
هؤلاء واوائك ؛ ومن ثم امكن اتحاد العرب والبربر تحت راية الاسلام المساوية ،
وتحقق لهذا القطر ما كان يرجوه منذ قديم الازمان ، ولم يتحصل عليه قبل ذلك ؛
تحقق له الاستقرار الديني الذي دام منذ ذلك العهد الى يومنا هذا ، رغم ما وقع
من شأن سببه خلاقات مذهبية قد استعملت في اكثر الاحيان وسيلة سياسية
يراد بها الوصول الى الحكم .

وما عثم ذلك الاستقرار الديني ان اسفر عن استقرار سياسى بصفة اعلان القطر المغربي الاسلامي استقلاله عن مركز الخلافة الاسلامية؛ وادارة اموره المحلية بواسطة الانجباب من بنيه .

لقد كان المغرب الاوسط - قطر الجزائر - اسبق جهات الغرب لاعلان الاستقلال ، وذلك بتأسيس الدولة الرستمية ؛ على يد كرام برة من رجال البربر اسلموا وحسن اسلامهم ، واعتنقوا مذهب الامام ابن اباض رضي الله عنه ، وقد كان اول مذهب اسلامي انتشر في بلاد الاسلام ، واعتنقه قوم كثيرون بالشمال الافريقي والبلاد الطرابلسية ، ولقد قام بكبير تأسيس الدولة الرستمية البربرية الاسلامية عبد الرحمان بن رستم الفارسي سنة ١٤٤ (١) فحكمت البلاد حكما اسلامياً يذكر في كل عصر ويشكر ، وسجلت في تاريخها صفحات نبل وفخار لا نعتدي على ذكرها الطيبة الايام .

واذ كان العقد قد انثر من الوسط ، واستقلت عن الخلافة العباسية وعن ولائها بالقيروان دولة بني رستم في تيهرت .

لم تعتم جهات الغرب ان اقتفت اثرها واعلنت استقلالها على يد بطل من ابطال العرب وسيد من سادة الاسلام وشريف من اشراف قريش ، هو المولى ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وذلك بمدينة مليلي سنة ١٧١ هـ (٢) (٧٨٤ ميلادية)

(١) وقع هذا بعد انهيار الدولة الاموية بالشرق ، بمقتل آخر خلفائها مروان ابن محمد سنة ١٣٣ هـ (٧٤٥ م) وقامت الدولة العباسية مقامها ممتدة على الفرس حاكمة بغداد .

(٢) بعد سنة ، اي عام ١٧٢ ، مات بالاندلس صقر قريش عبد الرحمان الداخل الاموي ، الذي استقل ببلاد الاندلس وانشأ فيها دولة اموية جديدة عتيدة

فما كادت تنتهي ولاية الامير روح بن حاتم بالقيروان سنة ١٧٥ حتى كانت الخلافة العباسية لا تحكم الا البلاد التونسية وبلاد الزاب ؛ اي القسم الشرقي من قطر الجزائر الحالي ؛ وما كادت تستقر بالبلاد اقدام الوالي الجديد ابراهيم بن الاغلب الكبير ، اثر حوادث كثيرة واضطراب ، حتى رأى ، ورأى وجوه القوم وكبراء الامة معه ، وجوب الانفصال الاداري عن بغداد والاستقلال بامور البلاد فراسلوا امير المؤمنين هارون الرشيد في ذلك ، وجاءت المصادقة منه بعد استشارة اهل الحل والعقد بمر كز الخلافة سنة ١٨٤ (٨٠٠ ميلادية) وتعاقد الفريقان على ان تبقى الامارة الجديدة معترفة بسيادة الخلافة العباسية ؛ وان تدفع خراجاً سنوياً لبغداد ، مقداره ٤٠ الف دينار متنازلة عما كانت تتقاضاه اعانة لها من خزينة مصر ومقداره مائة الف دينار .

تمت الامارة بذلك لأبراهيم ابن الاغلب واصبح في البلاد ملكاً مستقلاً مصلحاً معمرأ ساهراً على امور مملكته باسطاً العدل والامن بين سائر طبقات رعيته ؛ والتف حوله في تضامن اسلامي « ووطني » بديم رجال العرب والبربر فتوطدت اسس الدولة واقبل الناس على صالح الاعمال ؛ والناس على دين ملوكهم . وهكذا نشأت الحضارة الاغلبية الزاهية الزاهرة ؛ واصبحت القيروان العظيمة عاصمة ملك وسلطان امتها رسل الامبراطور شارلمان مهتة (١) وامتلات قصوراً

دامت هنالك زهاء ٢٩٠ عاماً ودامت ايامه ٣٣ سنة وانشأ بقرطبة التي اتخذها دار مملكته المسجد الاعظم الذي هو الى يومنا هذا اعجوبة الزمان .

(١) جاءت رسل امبراطور الغرب شارلمان مهتة بالملك والاستقلال راجية من ملك القيروان ان يرجع للمسيحية بقايا شهادتها وآثارهم ومخلفاتهم بالبلاد الافريقية فاقبل ابراهيم ابن الاغلب سفارة شارلمان بقصر العباسية ، جوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالاً منعدم النظير واجابهم الى مطلبهم فرجعوا مبتهجين ؛ ثم ارسل

وبساتين ، ومساجد ومدارس ودواوين ، وارسلت العمال من قبلها الى اقصى
جهات المملكة وازدهرت المدنية وانتشرت العلوم والآداب وكثر العمران ، فلم
تنقض ايام ابراهيم الكبير وابنه الاول عبد الله وابنه الثانى زيادة الله حتى كانت
دولة بنى الاغلب من ازهى ممالك المسلمين ، وبلغ خراجها يومئذ الف الف درهم
(نحو ٨٠٠٠ كيلو من الذهب) .

ولا نغفل لك فى خاتمة هذا الباب ، ما قاله الاستاذ فكتور بيكي فى كتابه
« مدينتى شمال افريقيا » عن الدولة الاغلبية : « لقد سار الامراء الاغالبية سيرة
قسط وعدل محترمين للحقوق مظهرين جميل الاستعداد للقيام بجلال الاعمال
الفائدة الامة » .

« من ذلك انهم انشأوا وظيفة تلقى نوراً غريباً على المجتمع فى ذلك العصر
فلقد نصبوا فى كل مدينة شخصية سامية مهمتها الرسمية (حماية الشعب ضد عدوان
الكبراء) « صاحب الظالم » وهيات ان يحدد مجتمعنا العصري عبارة اجمل من
هذه العبارة ، لوضع صورة تمثل فى آن واحد : احترام العدالة واحترام حقوق
الانسان .

« ولقد اشتغل امراء الاغالبية بالانشآت العامة والاعمال النافعة ؛ فاكثروا
من العمران والتجميل بمدينة سوسة وتونس ، وامر واحد منهم (هو الامير احمد
ابن محمد بن احمد) بحفر وبناء الصريج العظيم بمدينة القيروان (فسقية الاغالبية)
حيث تجتمع المياه الواردة من جبال جلاص ، ودائرة هذا الصريج تبلغ ١٢٨ متراً
ولا يزال مستعملاً الى يومنا هذا ؛ وان المسافر لتأخذ منه الروعة كل مأخذ عندما
تلوح له هذه الصفحة المائية الناصعة فى وسط بيداء جرداء يخيّل للناظر ان لاحد لها
ابن الاغلب حسبما تقتضيه التقاليد السياسية ، سفارة من ادنه ترد زيارة شارلمان
فاقبل تلك السفارة بمدينة بادو بايطاليا ؛ اقبالا لائقا فاخرآ .

« يقع هذا الصهر بج اليوم شمالي سور القيروان ، بعيداً عن البناء والعمران ، انما هو بلا ريب لم يكن خارج اسوار المدينة العتيقة ، وذلك ما يمطيك فكرة عن اهمية مدينة القيروان التي كانت في ذلك العصر آهلة غنية .

« والى جانب كل ذلك ، كان امراء الاغالبية فواد جنود لا تنكر مهارتهم الفائقة في الحروب ؛ فاستطاعوا ان يوطدوا سلطانهم بصفة مستمرة على قبائل من طبعها الشعب والمرج ؛ وتغلغل بواسطتهم النفوذ العربي في البلاد الى حد بعيد . انما كان اولئك الامراء على الاغلب ، اذا استتب لهم الامر وسادت السكينة ارجاء المملكة ينهمكون في اللذات والشهوات والشراب ويقومون تحت تأثير ذلك بافسى الاعمال التي بدفع اليها جيروت ليس له من حد . »

المحاولات الاولى — ان كانت البلاد التونسية مطمح انظار كل من

استقرت له قدم في جزيرة صقلية ؛ فقد كانت هذه الجزيرة كذلك مطمح انظار كل من توطد له بالبلاد الافريقية الشمالية امر .

ولقد فصلنا في مقدمة هذا الكتاب اعمال الدولة القرطاجنية في صقلية وما قامت به من جهود عنيفة في سبيل فتحها وفي سبيل الاستقرار بها .

وما كادت طلائع الفتح الاسلامي تبسط الوبثا النظافة فوق اديم هذه الارض فتجعل منها معقلا منيعا للعروبة والاسلام حتى اتجهت الانظار ، انظار الفاتحين الاولين صوب صقلية ، وكانوا من وراء الجزيرة الصقلية ينظرون قارة اروبا السابحة في الممجية النათية في يدها الوحشية والظلمات .

كانت غزوة الاشراف ؛ اشراف الحسب والنسب واشراف الجهاد والجلاد اول غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية . وكان القائم بكبر هذه الغزوة بطل العروبة والاسلام الخالد الذكرو موسى بن نصير القرشي ، وقد اقر الله على يده الكريمة امر الاسلام بهذه الديار المغربية ، ووطد بها اركان الفتح العربي ، وتمت تلك

الاخوة الاسلامية العظمى التي لم ير العالم لها من مثيل ، اخوة العرب والبربر ، لحتها الدين الحنيف الذي سوى بين الناس ، وما جعل من فضل عربي على اعجمي الا بالتقوى ، وسداها المصلحة المشتركة .

اراد موسى في بادئ الامر ان يعبر الى القارة الاروبية ، ممتطيا صهوة الجزيرة الصقلية ، فانشأ بتونس دار صناعة جهزت له مائة سفينة وصاح في الناس حيى على الجهاد فلبى الناس داعي الجهاد في سبيل الله افواجا ولم يبق شريف ممن كان معه الا ركب البحر ، ومن ثم دعيت هذه الغزوة غزوة الاشراف ، وعقد موسى لواءها لابنه عبد الله ؛ فنزل ارض صقلية ودحر قوى الروم بها وغنم مغنايم طيبة ، انما لم يستطع البقاء بها واتهام فتحها فاكتمى بها ناله وقفل باسطوله الى البلاد الافريقية . ولعل طول المسافة البحرية بين تونس وصقلية ، وصعوبة ارسال المدد الى الغزات من جراء ذلك هو الذي جعل موسى يعدل عن فتح صقلية ويعزم في التوجه الى مهاجمة اروبا من ناحية اخرى تكاد تنصل فيها بالارض الافريقية ؛ وهكذا نشأت غزوة بلاد الاندلس من مجاز طنجة الذي اصبح يعرف فيما بعد والى يومنا هذا ببوغاز جبل طارق ، وهو طارق بن زياد الليثي الذي اتم الله على يده ذلك الفتح المبين .

ولي الامر بافريقيا من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك ، عبيد الله ابن الجحباب فرأى ان يقتفى اثر موسى بن نصير وان يدخل اروبا من صقلية بعد ان توطن فتح الاندلس ، فارسل في اول الامر غزوة بحرية لقيت اسطولا الروم يعترضها الطريق ، فدار القتال بين الاسطولين وانهمزمت مراكب الروم وولت الادبار الا ان المسلمين لقوا من جراء ذلك عنقا واسر الروم منهم قبل انهمزاهم عدداً من رجالهم ، من جملةهم العالم الكامل الشهير سيدي عبدالرحمان بن زياد الذي بقي في

الاسر الى سنة ١٢١ (١) ثم رجعت مراكب المسلمين بما غنمته من الروم .
لكن ابن الحبحاب لم يصبر على هذه الخيبة وصمم على انفاذ السهم في صقلية
فجهز من جديد حملة عتيدة وضع على رأسها القائد حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن
نافع ، ومعه ابنه القائد الجور عبد الله بن حبيب ، وسار الاسطول الاسلامي من
دار صناعة تونس سنة ١٢٢ فنزل الارض الصقلية وقايل من اعترضه وهزم من
قاتله حتى وصل تحت جدران سرقوسة الشهيرة وانصب عليها الحصار وضيقه وضرب

(١) في السنة قبلها (٧٣٢ م) وقعت معركة ابواتية ، او بلاط الشهداء ؛ وبها
اوقف شارل مارتيل زحف المسلمين على ضفاف نهر اللوار وقتل اميرهم البطل عبد
الرحمان الغافقي ، وقد كان المسلمون دخلوا بلاد فرنسا سنة ٧٢٠ واحتلوا مدن
تربون وقرقشنة ونيم ثم استولوا على افينيون سنة ٧٣٠ وبوردو سنة ٧٣٢ ووضعوا
جاليات اسلامية بهاتيك الديار ؛ فبعد معركة ابواتية انسحب المسلمون الى الجنوب
حيث استقروا امدأ طويلا في البلاد المواجهة لجبال البيرانات الفاصلة بين فرنسا
واسبانيا .

وقد كان المسلمون يتقدمون في جنوب فرنسا الشرقي ملين دعوة الاهالي لهم
وكان من آثار المسلمين هناك تأسيس جامعة « مونييلي » وبعد انجلاء المسلمين
جرد ملك فرنسا (يبيان البريف) ابن شارل مارتيل حملة انتقامية ضد اهالي جنوب
فرنسا الشرقي فامعن فيهم مدة ٢٥ سنة قتلا ونهبوا وتعذيباً .

وبهذه المناسبة يقول المؤرخون الغربيون ان الفاتحين العرب كانوا يتقدمون
في البلاد حسب التقارير السرية التي كانوا يتصلون بها من اليهود الذين انشأوا
يومئذ جوسسة واسعة النطاق لفائدة الفاتحين المسلمين ؛ سعيا منهم في الخـروج
بواسطتهم عن احكام المسيحية الجائرة القاسية التي كانت تمعن فيهم اضطهاداً وفتكا
وتعذيباً .

باب المدينة ضربة رمزية بسيفه فاثرت فيه ، واذعن الروم والاغريق للصالح وبذلوا في سبيله جزية ذريعة وعزم حبيب وابنه عبدالله على البقاء بصقلية وأنجاز فتحها ، وقد تيسرت لهما اسبابه . الا ان الحالة ساءت بافريقيا اذ وقعت ثورة في ناحية طنجة قام بها البربر العصاة (١) فارسل ابن الحباج عليهم القائد خالد ابن ابي حبيب الفهري معه وجوه القوم واشراف قريش ، وكانه اراد بذلك ان يقمع الفتنة بوجه سلمي وبطريقة الاقناع والاذعان للحق على يد قوم لهم مكانة عالية في الدين وفي المجتمع الا ان الفتنة كانت عمياء هوجاء ؛ والقف الثوار برسل الامير وكانوا جماعة غفيرة فمئلوم عن آخرهم وكاد امر الفتنة يستعجل ؛ فبادر عبدالله باستدعاء الجند الاسلامي من صقلية مقدماً الاهم على المهم ؛ واضطر حبيب ومن معه لاخلاء الجزيرة مرة اخرى بعدما كادوا ينجزون فتحها ، ورجعوا على مضض الى البلاد الافريقية . رأى عبيد الله بن الحباج خيبة أملة الزدوجة وفشل مساعيه الجسيمة فترك الولاية ؛ ورجع الى المشرق في جمادى الاولى سنة ١٢٣ ، وكانت ولايته سنة ١١٠ ومن آثاره الجسيمة الخالدة الجامع الاعظم بتونس جامع الزيتونة العامر منبع النور والهدى بالشمال الافريقي زاده الله رفعة وسمواً . وينسب له بعض المؤرخين بناء دار الصناعة بتونس ولعله حسنها وزادها اتساعاً ونشاطاً ، لان موسى بن نصير كان قد استعمل بتونس دار الصناعة ، ومنها جهز مراكبه لغزو صقلية كما اسلفنا ثم في ايام الوالي عبد الرحمان بن حبيب الفهري اعاد عبد الله بن حبيب غزوة الجزيرة وكان الروم قد حصنوها وانشأوا بها اسطولا لا يقصدون به الدفاع فحسب بل كانت مهمته مهاجمة مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم ؛ قال ابن الاثير : فكانوا كلما ظفروا بمركب من مراكب المسلمين اخذوه بما فيه .

(١) سبب هذه الثورة عسف العامل على طنجة من قبل ابن الحباج واسرافه في الظلم والعدوان .

اشتعلت نيران الحرب بين الاسطواين ؛ وحطم ابن حبيب الكثير من
مراكب الاعداء ، ودك حصونهم ولم تكن نيته هذه المرة الاستقرار بالجزيرة ،
فتركها بعد ان صالحه الروم بها على مال كثير ورجع الى افريقيا مثقلا بالغنائم .
الفتح الاغلي وأسبابه — نشأت الدولة الاغلبية كما اسلفنا في عزة وكرامة

وتوطد لها الملك والسلطان ، ودانت لها الناس فقامت بمآثرها الخالدة على
صفحات الوجود الا وهي فتح صقلية وموالاة الجهاد بها ونصب الوية الاسلام
فوقها عالية خفاقة زاهية .

كان أهم أسباب العزم على الفتح بصفة قارة مستمرة ، هو تمهيد السبيل لفتح
البلاد الاروية ومهاجمتها من الوسط حيث اخفق هجوم المسلمين عليها من ناحية
الشرق عند جدران القسطنطينية وأخفق هجومهم عليها كذلك من ناحية الغرب
في سهل مدينة ابواتية امام شارل مارتال .

أما السبب الثاني الرئيسى لهذا الفتح فهو محاولة قطع دابر القرصنة البيزنطية
الرومية وقد اتخذت صقلية كما اسلفنا مركزا لها ، تشن منها الغارة الغينة بعد
الفينة على الارض الافريقية فتخرب الثغور وتنتهب الارزاق وتذهب بالسكان
الآمنين اسرى حيث يباعون عبيدا إن لم تبادر الدولة الاسلامية بدفع الغدية عنهم .
زد على هذين السببين الرئيسيين سببا ثالثا هو رغبة الملك الاغلي في قطع
دابر الفتن الداخلية والثورات التي كانت تجتاح البلاد مثل وافدة اخطر من
الطاعون وافتك من الوباء ؛ باشتغال الناس من بربر وعرب ، بأمر الجهاد في سبيل
الله فوق اديم ارض اجنبية ينسبهم فتنهم الداخلية ويلبهم عن محاربة بعضهم بعضا
وتخلص الملك الاغلي بواسطة هذا الفتح من العناصر المتهيجة المثيرة في الجند العربي
والتي اوصلت المملكة الاغلبية تحت قيادة الزعيم الشاثر منصور بن نصر امير الحمدية
الى شافة القبر ، وما امكن التغلب عليها الا بمجهود جبار وتدير حكيم .

وقد مجحت هذه الغايات السامية الى حد بعيد ، ومجح بلاط القيروان الزاهر في عهد الاستقلال الذهبي حيث اخفقت محاولة الولاة في عهد التبعية والحكم المباشر بواسطة الخلافة .

العزم على الفتح — تكاثر عدد المسلمين الاسرى بجزيرة صقلية ، فمقد الملك زيادة الله اتفاقا مع حاكم الجزيرة من قبل الروم ، تعهد به هذا بارجاع اسرى المسلمين الى البلاد الافريقية ، ولا يبقى منهم احداً بارض الجزيرة .

وكانت الحالة يومئذ في صقلية على اسوأ ما تكون عليه حالة بلاد يحكمها من قبل الاجانب حكام غلاظ شدداد ، ديدنهم الارشاء ودينهم مصلحة الذات ، وسيرتهم الجور والعسف وسريرتهم الحقد والحسد ونية السوء ، والشعب المسكين يئن من جراء ذلك انينا منكراً وليس عليه الا الخضوع لارادة الظالمين .

كان يتولى امر الجزيرة يومئذ من قبل امبراطور الروم في القسطنطينية عامل يدعى قسطنطين جمع الله فيه ما تفرق في بني قومه من فساد السيرة وخلال السوء . وكان على الاسطول الرومي بالجزيرة امير البحر اوفيماس Euphémias (ويسمى ٤ ورخو العرب فيمي) لم يكن احسن من زميله سيرة ولا اظهر سريرة ، وكان الخلاف مستحكماً بين الرجلين بصفة فضيلة فسعى الوالي لدى الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني واستصدر منه امراً في القبض على امير البحر ، وكان لهذا النصر واتباع يسرون تحت لوأته وينتفعون منه ، فثاروا على الوالي ونبذوا دعوة الامبراطور واعلنوا في الجزيرة استقلالهم ، وانتصب اوفيمياس حاكماً بامرهم هناك . لكن الدهر لا يصفو للظالمين ؛ فان اوفيمياس لم يمكث في الملك طويلاً ، حتى ثار عليه احد قواده ، بلاطة ، وهزمه في معارك عديدة واعان رجوع البلاد لطاعة الامبراطور .

ضاقَت الاسباب باوفيماس فقدم بجماعة من انصاره الى مدينة القيروان

مستنجداً بلاطها ضد خصمه .

كان مجلس شورى الملك زيادة الله يتفاوض يومئذ في مسألة الاسرى المسلمين بصقلية ، وقد علم رجال القبروان انه لم يزل بين ايدي الروم هناك جماعة من المسلمين وان العقد الذي عقده الملك مع والي الجزيرة لم ينفذ ، وكان الجدل يومئذ محمداً حول ذلك ؛ وهل يجوز نقض العهد معهم والعودة الى حربهم ؟ فقال قاضي الجماعة اسد بن الفرات : علينا ان نستخبر رسلهم ؛ يعنى (جماعة اوفيماس) فاننا بواسطة الرسل قد عاقدناهم ، وكذلك بواسطة الرسل نقيم عليهم الحجة ونجعلهم ناكثين .

اوتي بالرسل يومئذ فستلوا عن الامر ، واكدوا انه لم يزل حقا بالجزيرة الصقلية خلافا للعهد ، جماعة كبيرة من المسلمين في حالة رق واستعباد . اذاك قرر المجلس ان العقد قد نكث من طرف الاعداء ، وان الحرب واجبة لرفع هذه المظلمة ونادى زيادة الله بالجهاد في سبيل الله ؛ فابى المسلمون النداء واجتمع الاسطول الاسلامي بمدينة سوسة ، مرسى اقبروان ؛ وكان يجمع مائة مركب تحمل كل مركب منها نحواً من مائة وعشرة من المقاتلين مع الزد والعتاد والخيول ، فكان الجيش الفاتح مؤلفاً من عشرة آلاف راجل وتسعمائة فارس وامر عليهم قاضي الجماعة اسد بن الفرات .

اسد بن الفرات — وانه لمن اكبر الكبراء واعظم العظماء في تاريخ الشمال الافريقي ، لا تدانى منزلته العالية في العلم ، الاهمته الشامخ وعلو كعبه في الجهاد ، بين ميادين السيف والقلم .

وانه لمن واجبنا المقدس ان نسطر صفحة حياته النقية الطافحة بجلال الاعمال بصفة موجزة (١) حتى نتخلص الى ذكر قيادته الجند واعماله في صقلية .

(١) راجع نن ترجمته باسهاب ؛ مقالاً ممتعاً للاستاذ العلامة الشيخ سيدي احمد

العجمي الاصل ، ولد بمدينة من ارض خراسان سنة ١٤٢ ، وقدم مع والده
وسنه لا يجاوز الاربعة اعوام صحبة الجيد الاسلامي القادم مع الوالي محمد بن
الاشعث لتمهيد الامر بافريقيا .

تلقى في مدينة القيروان مباديء علومه مدة خمسة سنوات وارتحل في العاشرة
من عمره الى مدينة تونس فاقطع فيها للعلم نحواً من التسعة اعوام تلم فيها القرآن
وعلمه ، وروى فيها موطأ الامام مالك عن علامة افريقيا يومئذ وبجرها الطامي
سيدي علي بن زياد (١)

وكان اسد رحمه الله يقول مفاخرأ ومداعباً اقرانه : انا اسد والاسد خير
الوحوش ، وابي الفرات والفرات خير الماء ؛ وجدى سنان والسنان خير السلاح .
ولم يكفه ما روى به غلته من العلم في مدينة تونس ؛ فامتطى صهوة العزيمة
والجلد ، وشد رحاله الى المشرق الذي كان يزهر ويزدهر يومئذ بما فيه من
مصاييح العلم وائمة الهدى .

ام باديء ذي بدء مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهناك سمع عن مالك
ابن أنس رضي الله عنه الموطأ وتعمق فيه بعدما استوعبه اول مرة عن ابن زياد ؛
ثم غادر المدينة مزوداً بعلم مالك العزيز ودعائه الصالح ووصيته يوم الوداع : اوصيك
بتقوى الله تعالى ؛ والقرآن والنصيحة لهذه الامة « وام العراق فلقى جماعة من

المهدي الذي نشرته مجلة الثريا التونسية في العدين السابع والثامن من سنتها الاولى
(١) روى الموطأ عن الامام مالك رضي الله عنه بالمدينة ؛ واخذه عنه الامام
سحنون صاحب المدونة ؛ عرضت عليه الدولة مراراً تدولى القضاء ، فرفض وابى
تورعاً منه ، وحبا للانقطاع للعلم ، حتى توفاه الله سنة ١٨٦ ، ودفن بتونس حيث
لا يزال ضريحه الضخم تجاه ادارة المحافظة يزوره الناس احياء لذكراه واعترافا
بجلال اعماله .

اصحاب ابي حنيفة النعمان ؛ اخص بالذكر منهم الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فاخذ عنهما الشيء الكثير من علم ابي حنيفة وآرائه وفتاويه واخذ عنه ابو يوسف موطأ مالك وآراؤه . ثم انتقل الى مصر وفيها جماعة كبرى من اصحاب مالك والناسجين على منواله ، فصحب منهم الامام عبد الرحمان بن القاسم صحبة طويلة وامعن في سؤاله وعرض المسائل المختلفة عليه ، حتى انقطع اسد في السؤال ، اذ لم يبق له شيء يسأل عنه ، ودون عندئذ كتابه الشهير « الاسدية »

وبعد عشرة اعوام مضت في جهاد عنيف واجهاد نفسي عز نظيره في سبيل العلم والمعرفة رجع الى وطنه الافريقي حاملاً في صدره علماً غزيراً ، وفي وطابه كتاباً عزيزاً هو الاسدية ، وتصدى للعلم والنفع ، فاشتهر امره وذاع صيته .

وكان الامام سحنون يومئذ بالمشرق ينهل من معين ابن القاسم العذب وقد صحبه واطال صحبته وألف كتابه الاشهر « المدونة » ثم رجع به الى القيروان وانتصب للاقراء والنفع والتدريس ؛ ولم تكن المدونة على وفاق تام مع الاسدية فهناك مسائل كانت محل خلاف واستشير الامام ابن القاسم في الامر فرجع كفة المدونة على كفة الاسدية وأمر أسد بان يصحح كتابه على المدونة فترك أسد رحمه الله اسديته وفقه مالك ؛ وأقبل على مذهب أبي حنيفة النعمان يشرحه للناس ويعلمه الامة .

ثم ولي قضاء القيروان سنة ٢٠٤ مشتركا في ذلك مع القاضي أبي محرز الكيناني ؛ وكان بينهما شأن كبير وخلاف جسيم .

وعندما وقع الخوض في مسألة صقلية ومن بها من أسرى المسلمين كان من رأي القاضي ابي محرز الكيناني الثاني الي ان يتأكد الخبر ؛ ولو كان عائشا في عصرنا الحديث لطلب « تشكيل لجنة بحث » اما اسد فكان رأييه الاسد ، اذ قال علينا بسؤال الرسل ، فاننا بواسطة الرسل صالحناهم ، وبواسطة الرسل نجعلهم ناكثين

ورجح هذا الرأي كما رأيت ، ونادى منادى الجهاد ، واجتمع الاسطول في سوسة .

عندئذ طلب القاضي اسد بن الفرات من اميره زيادة الله ، الاذن له بالخروج صحبة الجند الاسلامي حتى ينال شرف الجهاد ، او شرف الاستشهاد ، فولي زيادة الله طلب القاضي الذي كان يومئذ في العقد السابع من عمره ، واولاه اماره الجيش الفاتح ؛ فقال اسد : واهاً يا مولاي ! اتعزائي عن القضاء لكي توليني الامارة ؟ فقال زيادة الله كلا ؛ بل لك اماره الجيش مع القضاء .

وامر زيادة الله ان يخرج الجند الاسلامي في موكب حافل ومهرجان مشهود فخرج لوداع المجاهدين كبار الامة وعيون القوم من العرب والبربر والاندلسيين ، والسادة الاشراف ؛ قال الشيخ ابو بكر بن محمد المالكي في كتابه «رياض النفوس» فلما رأى (اسد بن الفرات) جمع الناس بين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ، وقد صهلت الخيول وضربت الطبول ، ونشرت البنود قال : لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ما ولي لي اب ولا جد ولاية قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام ، فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته فانكم تتالون به الدنيا والآخرة .

المعارك الاولى — اقليم الاسطول الاغلي الاسلامي من مدينة سوسة ؛ يوم

الاحد ١٤ ربيع الانور سنة ٢١٢ (١١ جوان ٨٢٤) ووصل سواحل صقاية عند مدينة مازرة ، يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الانور ؛ قاطعا في ثلاثة ايام ، ثلاثمائة كيلو متراً تفصل بين سوسة ومازرة .

نزل المسلمون مدينة مازرة ، ولم يجدوا بها من يدافع عنها لاختلال امور الروم وزهد اهل البلاد في الدفاع عنها لفائدة الغاصبين ، فآثم المسلمون تفرغ الاسطول

تاريخ صقلية — ٥

وانزلوا الى الارض جميع ما اتوا به من معدات الفتح والكفاح .

عندئذ قدم القائد بلاطة بجموع كثيفة من الروم ، تبلغ المائة الف مقاتل ، اي عشرة اضعاف الجند الاسلامي ؛ اما امير البحر اوفيماس الخائن فقد تركه المسلمون وشأنه ولم يستعملوا جماعته وانصاره .

خرج المسلمون للقاء بلاطة ، وكان يعتزم الرمي بالمهاجمين الى البحر ، والتقى الجمعان على مقربة من مازرة . قال ابن ابي الفضل وكان حاضرا المعركة « ورايت اسد بن الفرات ويده اللواء وهو يزمرم ؛ فحملوا عليه ، وكانت فينا روعة ، فاقبل اسد على قراءة يس ؛ فلما فرغ منها قال للناس : هؤلاء عجم الساحل . . . هؤلاء عبيدكم . . . لا نهاوهم ؛ وحمل باللواء وحمل الناس معه ؛ فهزم الله جل وعلا بلاطة واصحابه ، فلما انصرف اسد رايت والله لدم قد سال من قناة اللواء مم ذراعه حتى صار مع ابطه » .

ومعنى قول أسد : هؤلاء عجم الساحل ، اي هؤلاء الذين هربوا امامكم من السواحل الافريقية .

اثر هذا النصر العظيم ، فرت فلوز الجيش الرومي نحو الجهة الشرقية معتصمة بمدينة سرقوسة ؛ ورأى اسد ان يستثمر على الفور انتصاره الكبير ، فسار بجيشه يقتفي اثر المنهزمين ، ففتح كامل الجنوب الصقلي في مدة وجيزة حتى وقف تحت اسوار سرقوسة قاطعا مسافة مائتي كيلو متر الفاصلة بين مركز النزول مازرة والمدينة المحاصرة في وقت وجيز .

وكان امير البحر اوفيماس قد ندم على فعلته وخيانته ، اذ رأى ان المسلمين يفتحون الجزيرة لحساب الاسلام لا لحساب رومي . هــاـ كان شأنه فراسل أهل سرقوسة يستحثهم على الصبر والثبات ريثما يقدم لنجدتهم ، فخرج جماعة من البطارقة والرهبان يسألون الامان لاهل المدينة ويطاولون في المذاكرة وكان ذلك منهم

خديعة حربية تمكنوا بواسطتها من كسب الوقت ، وزيادة تحصين المركز ، وإخفاء ما به من كنوز ونفائس .

أراد المسلمون أن يقتحموا المدينة فآخفقوا وأراد أهل المدينة أن يعدوا المسلمين عن أسوارها فآخفقوا كذلك وأصبحت الحرب حرب مراكز لا حرب حركة .

وقع المسلمون في مخمصة عند ذلك وأصاب الجند جوع كبير حتى أكلوا الخيول فخطبوا القايد ابن قادم في الأمر وسأله التوسط لهم عند أسد ليأمرهم بالرحيل إلى إفريقيا؛ قال ابن القادم لأسد : ارجع بنا إلى إفريقيا فان حياة مسلم واحد أحب إلينا من جميع المشركين ، فقال أسد ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير ؛ هناك اخذ دعاة الهزيمة يعملون أعمالهم وينشرون دعايتهم المنكرة وبدرت من ابن القادم الذي تزعمهم كلمة سيئة ، فقال أسد : على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان ؛ ثم تناوله وضربه ثلاثة أو أربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ونصر فكرة المقاومة والثبات والصبر ، فتم له ما أراد ؛ وعادت العزيمة القوية إلى النفس التي لعبت بها حينما دعا دعوة النكوص على الاعقاب واذا كان المسلمون قد احتلوا كامل الجنوب الصقلي ؛ فقد سهلوا على انفسهم امر تموين الجند ووصول النجدة اليه من الارض الافريقية ، ووصلت النجدة والاقوات والماؤون للمسلمين ؛ ووصلت للروم في سرقوسة مثل ذلك من بقية الحاميات الرومية ، واستمرت الحرب سجالا حول سرقوسة ، وقد حفر المسلمون حولها خندقا عظيما يمنع خروج حاميتها المهاجمة .

وكان اسد رحمه الله ورضي عنه يباشر امر الحصار بنفسه ويضيق على المدينة لكن ذلك الجهد الحربي الذي بذله منذ نزل مازرة نال من جسمه البالي فصابه من جراء ذلك مرض اودى بحياته الجليلة ، ولبي داعي ربه في ربيع الثاني سنة ٢١٣ اي بعد جهاد متواصل عنيف دام ١٣ شهراً ودفن رحمه الله بمقر استشهاده تحت

اسوار سرقوسة ، ويقول بعض المؤرخين انه دفن بمدينة قصر يانة ، وذلك غاطلاً لأن تلك المدينة لم تكن قد فتحت بعد ؛ وكذلك يقول بعضهم غلطاً انه دفن في بالرمه التي لم تفتح الا عدة سنوات بعد ذلك .

محمد بن ابي الجوارى

اجتمع المسلمون بعد انتقال اسد بن الفرات الى الرفيق الاعلى ؛ وولوا عليهم محمد بن ابي الجوارى . كانت النفوس قد ضعفت والعزائم وهنت ، فاستقر رأي الامير محمد بن ابي الجوارى على اخلاء الجزيرة ، والرجوع بالمسلمين الى افريقيا . غلطة الروم - توطد الفتح — ركب المسلمون عندئذ مراكبهم منسحبين ؛

واقلموا ، وما كادوا يتوسطون عرض البحر حتى لقيهم اسطول الروم القادم من القسطنطينية بجدة لاهل سرقوسة ؛ فسد على المسلمين طريق الرجوع الى افريقيا ولم يترك لهم الا احدى الطريقتين : اما قبول المعركة مع الاسطول الرومي ، وهو اوفر عدداً واقوى عدة ، او الرجوع لصقلية ، والثبات بها والصبر على شدة الحرب الى ان ياتي الله بامرره .

عزموا ، وهم على متن البحر على مواصلة الجهاد والرجوع الى البر ، فرجعوا مستبسلين ، عازمين على الفوز او الاستشهاد ، ولكي يقطعوا كل امل لهم بالنكوص على الاعقاب والرجوع نحو افريقيا ، قاموا بعملهم الحازم الحاسم ، الا وهو احراق اسطولهم عن آخره مقتدين في ذلك بما فعله من قبل طارق بن زياد عند فتح الاندلس ، حينما احرق المراكب وقال : ايها الناس البحر وراءكم والعدو امامكم ، وليس لكم والله الا الصبر او النصر ؛ وبهذا الحادث الرمزي ، توطد امر المسلمين في الجزيرة وعزموا على انجاز الفتح الى النهاية .

ابن فرغلوش الاندلسي — وكيف الصبر على الجوع وعلى قلة المدد وعلى ضعف العدد ، امام جموع الروم الغفيرة واقواتها الوفيرة ؟ رأوا ان لا ملجأ من

الله يومئذ الا اليه فصبروا وانتظروا ؛ وكان نصر الله قريباً .

في تلك الاثناء والازمة مستحكمة الحلقات ، ارسى على السواحل الصقلية الجنوبية اسطول قرصان المجاهدين المسلمين بالاندلس ، يقوده اصبع بن وكييل المشتهر باسم « ابن فرغلوش » وكان الاسطول مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة سائرة في سبيل الغزو والمغامرة .

تم الاتفاق بين مسلمي الجزيرة وقرصان الاندلس على ان ينزل الاندلسيون الجزيرة لنصرة جندھا ، وفتح مدنها والقضاء على حكم المسيحية فيها وعلى ان تكون الامارة فيها عند انجاز ذلك لابن فرغلوش .

نزل الاندلسيون البر واشتد بهم ساعد أهل افريقيا وسار المسلمون أقوياء الغزائم في طريق الفتح والنصر ، فاحتلوا مدينة ميناء بعد حصار ثلاثة أيام ؛ ثم ساروا نحو جرجنت ففتحوها قسراً وساروا بعدئذ نحو معقل « قصر يانة » الذي كان أكبر صياضى الروم بالبلاد .

كان امير البحر اوفيماس الخائن لا يزال يسير مع المسلمين اينما ساروا ؛ وكان لا يزال يطمع في تولى الامر بعد أن يمهد له المسلمون السبيل ؛ فعندما وقف المسلمون تجاه نصر يانة ، وكان أهلها أشداء متفانين في الدفاع ، أظهروا الاستسلام والخضوع ، وأبدوا رغبتهم في تولية اوفيماس أمرهم ، وما كان الامر منهم الا مكيدة فتمكنوا من الخائن ودقوا عنقه ، وتحصنوا في مدينتهم أثر ذلك فلم تستطع جموع المسلمين اخضاعها .

الوباء — في سنة ٢١٦ (٨٢٨) أصاب المسلمين وباء شديد فتك بهم فتكا

ذريعاً ، وكان القائد المجاهد بن فرغلوش من جملة من استشهد بذلك ومات في تلك السنة نفسها الوالي محمد بن ابي الجوارى ، واضطرب امر المسلمين فتولى امرهم مؤقتا عثمان بن فرب الى ان جاء من القيروان ابو قهر محمد بن عبد الله التميمي

سنة ٢١٧ (١) فنفر ابن فهورب عنها ولم تطل مدة ولايته ، ولم يستقم له امر ، ورجع اسطول الاندلس بمن بقي حيا من رجاله الى اسبانيا .

زهير بن عوف

ارسل زيادة الله الاغلبى ، زهير بن عوف عاملا على الجزيرة ، على ان يستمر فيها على الجهاد ويتم فتح البلاد ؛ وارسل معه جنداً عتيداً يبلغ عدده ٣٠ ألفاً ؛ فاشتد ساعد المسلمين هنالك ، واندفعوا يوايرون الفتح ويسيرون من نصر الى نصر .
فتح بالرمة — ولقد كان ملك عمل ابن عوف رحمه الله ورضى عنه فتح بالرمة

عاصمة الجزيرة ودرتها اللامعة ؛ فلقد سار اليها على رأس الجند الاسلامى بعد ان توطن الفتح في الناحية الجنوبية كلها ؛ وكان الروم ومن اف حولهم من انصار المسيحية قد تحصنوا في العاصمة واستعدوا لتلقى الصدمة الرهيبة واعدوا لها ما استطاعوا من قوة وميرة ، ومن عزيمة وجلد .

وقف المسلمون تحت الاسوار المنيعة ، وارسل ابن عوف الانذار الشرعي لرجال الحامية فرفضوا الانذار وتلاقت هنالك تحت جدران العاصمة الصقلية عزيمتان قدتا من زبر الحديد ، عزيمة المسلمين التى استقرت على وجوب الفتح

(١) فى السنة الموالية ؛ ٢١٨ هجرية ، توفى امير المؤمنين الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد ، وقد كان عصره ازهر عصور المسلمين من حيث العلم والثقافة وقد امر باحضار كتب العلم والحكمة والهندسة وغيرها من بلاد الاغريق وكلف بتعريبها جماعة من مهرة الترجمة ، وقد كان كثير التشيع حتى انه اوصى بولاية العهد لعلى الرضا بن موسى الكاظم ؛ وفي ايامه نجست فتنة القول بخلق القرآن واشتدت محنتها ؛ وقد كان مغرماً بالتجسس والاطلاع على سائر الاحوال ، فعين ١٧٠٠ عجزوز يجس من خلال الديار ويطلعنه على مختلف الاسرار .

ودك الاسوار ، ونحطيم كل مقاومة تقف في سبيل انجاز المهمة الكبرى ، وعزيمة الروم التي توطدت على وجوب الدفاع عن العاصمة ، وفي الدفاع عنها دفاع عن كيان الجزيرة بأسره ؛ فاما الفوز ودحر المسلمين واما الانهيار مع انقراض المدينة . نصب ابن عوف الحصار على بالرمة وضيق عليها الخناق من سائر اطرافها ومهما ازداد شدة في تضيق الحصار الا وازداد المدافعون تصلباً في المقاومة واستماتة في الدفاع ؛ وقد علم كل من الفريقين ان المعركة حاسمة وان نتيجتها ستكون اما فوز الاسلام بالجزيرة ، وتقلص ظل المسيحية بها ، واما اندحار المسلمين ورجوعهم من حيث اتوا خائبين .

لكن الضائقة اشتدت بالمدافعين الى درجة لم يبق لهم معها احتمال الصبر ، وفقدوا كل امل لهم في النصر ، ولم يبق امامهم الا احد الطريقتين : طريق الموت والاستشهاد كابطال قرطاجنة الذين سقطوا في ميدان الشرف مجندلين تحت انقاض مدينتهم بين السنة الهيب ، او طريق الاستسلام والانسحاب . واقد كان هذا هو الذي استقر عليه الوالي الرومي ومن بقي معه من رجال المسيحية ، فطلب من ابن عوف الامان على ان يغادر الجزيرة بجرأ بماله واهله ، ومن اراد اتباعه من وجوه قومه ، فامنه الامير المسلم واجابه لطلبه تقديرأ منه للبطولة التي اظهرها اولئك القوم في الدفاع ؛ واجر الروم تاركين المدينة مفتوحة امام المسلمين فدخلوها في رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٢) ، ولم يجدوا بها حسب رواية ابن الاثير الا ثلاثة آلاف من السكان ، وقد كانوا قبل الحصار ٧٠ ألفاً .

اتخذ المسلمون يومئذ مدينة بالرمة عاصمة لملكهم ، كما كانت عاصمة الذين سبقوهم ؛ وكما اصبحت من بعد عاصمة الذين خلفوهم ؛ واندفعوا في ميدان الاصلاح وال عمران والتمريم ، يقيمون انقاضها ويشيدون جدرانها ويوسعون دائرتها ، فما عثمت غير قليل حتى اصبحت تختال في ثوب قشيب من المدينة وال عمران ؛

وامتلات قصوراً ومساجد ودواوين وحمامات واسواقا وحدائق وبساتين وصارت جنة يانعة تمثل انوار الشرق الاسلامي ومدنيته الالامعة الخلابية وعلومه وقفونه ومنشآته ، تجاه ظلمات القرون الوسطى فى العالم الغربى .

استمرار الفتح - احتلال مسينا - اثناء حصار بالرمة ، نال المسلمون

نصراً عظيماً وطد قدمهم فى ناحية الشمال الصقلي ؛ وذلك باحتلال مدينة مسينا ، سنة ٢١٩ (٨٣١) فانحصر الروم والمسيحيون فى الناحية الشرقية من صقلية حوالى مدينة قطانيا ، واصبحوا لا يحتلون من الجزيرة الا مثلاً بمتد من الشرق نحو الجنوب الغربى من مسينا الى قصر يانة ، ثم يرجع من قصر يانة نحو الجنوب الشرقى الى مدينة نوتو ؛ وعلى هذا الخط الحربى الذى كان يتضاءل شيئاً فشيئاً كانت تتوالى اعمال الهجوم من ناحية المسلمين ، وكانت تتوالى اساليب الدفاع من ناحية المسيحيين هاجم المسلمون الخط من وسطه مرتين ، خلال سنتي ٢١٩ و ٢٢٠ محاولين احتلال مقل قصر يانة المنيع ؛ انما هم لم يستطيعوا ان يذالوا منه مثلاً ، فاكثفوا بغنائم غنموها ورجعوا الى معسكرهم .

كذلك حاولوا تمزيق الخط من اسفله ، فهاجموا مدينة سرقوسة بشدة ، لكنها تصلبت فى الدفاع ، واشتدت مقاومتها بصفة أجبرت المسلمين على الرجوع الى مراكزهم لكن هذه الخيبة انقلبت نصراً مبيناً ، ذلك أن جند الروم رأى أن يقطع عن المسلمين خط الرجعة ويصدّهم عن الرجوع إلى مراكزهم فاعترض لهم فى الطريق وانقلبت محاولته تلك وبالا عليه ؛ اذ ان المسلمين ركنوا إلى غابة كثيفة هناك حجبتهم عن انظار المتتبعين ، وكنوا هنالك الى حين ، ثم انقضوا فجأة على الجند الرومى فمزقوه شرمزق ، وقتلوا البطريق قائده وغنموا زاده وعتاده ثم عادوا نحو سرقوسة فنصبوا عليها الحصار وضيقوه .

كذلك سار القائد محمد بن عبدالله على راس كتيبة فنانجز مدينة طبرمين

القتال ولم يدخلها مكتفياً بالاستطلاع وبما ناله من غنائم واسلاب وأخيراً احتل مدينة كوزو Gozzo سنة ٢٢١ .

أبن أبي محرز القاضي — في هذه السنة سنة ٢٢١ مات بمدينة القيروان

عالم من جملة العلماء وعلم من اعلام المسلمين ، هــ و ابن أبي محرز قاضي صقلية ؛ وقد ضربت بنزاهته وعدله وبتقواه وورعه الامثال ، من ذلك انه عندما بلغته الوفاة ، اوصى اخاه عمر ابن أبي محرز ان يكتم خبر موته خوفاً ان يكفنه ويدفنه زيادة الله الاغلبى ، وينفق ذلك عليه من بيت مال المسلمين ، فيلتي الله وعليه من مال المسلمين شيء ، وهكذا كان . فلما بلغ نبأ ذلك الامير ، ارسل بفتاه خلف ، ومعه مسك وطيب واكفان فوصل ساعة كان النعش خارجاً نحو المقبرة ، فنثر خلف المسك على جدث القاضي ، ورجع بالاكفان ؛ وحضر الدفن الامير زيادة الله وعزى اخاه واهل العلم فيه ، وقال لمن حوله « لو اراد الله بكم يا اهل القيروان خيراً لما اخرج ابن أبي محرز من بين اظهركم .

وفي نفس هذه السنة ٢٢١ (١) توفي زهير بن عوف امير صقلية وقد سجل

اسمه على صفحات المجد بجلال اعماله .

(١) في هذه السنة اشتدت بالعراق محنة القول بخلق القرآن على يد الخليفة

المعتصم بالله ، وكان قد تشبه بملوك الاعاجم ، وادخل الاتراك الدواوين واعتمد عليهم في ادارة الدولة ؛ وبلغ غلمانه من الترك ١٨ الفا ، البسهم اطواق الذهب والديباج ، وبنى مدينة « سر من رأى » وانتقل اليها ، وقد حارب الروم وانحن فيهم ، وكان من ضحايا القول بخلق القرآن ، الامام احمد بن حنبل ؛ الذي امتدح من الاعتراف بذلك المنكر ؛ فعقد له مجلس للمناظرة دام ثلاثة ايام ؛ وضرب ضرباً مبرحاً الى ان اغمي عليه وهو صائم ، ومات رضي الله عنه شهيداً من جراء ذلك ثم استعمل المعتصم بالله خمسين الفا من الاتراك للتقار لاجل المحافظة على الثغور ،

أبو الأغلب أبراهيم بن عبد الله بن الأغلب

ولي إمارة صقلية عند موت زهير بن عوف ، وأمر المسلمين في نمو وسلطانهم في تمكن وحول وقوة ؛ وكان الروم لا يزالون متحصنين في الخط الدفاعي الذي أسلفنا ذكره ؛ فكانت همة الوالي الجديد متوجهة نحو ذلك المثلث يريد نفسه ، حتى يصفو أمر الجزيرة للمسلمين لا ينازعهم فيها منازع .

الحرب البحرية — رأى ابن الأغلب أن الروم يعتمدون على البحر أكبر الاعتماد ، والنجدات ترد إليهم تباعا على متن الأمواج فايقن أن القضاء النهائي على المقاومة الرومية لا يقع إلا بعد القضاء على مراكز تموينهم ، وقرر الأسطول الرومي والسفن التي تعمل على أنجادهم .

لذلك كانت أعمال أبي الأغلب الأولى منحصرة ضمن المنطقة البحرية ، فسير سفائنه تجوب عرض البحار المحيطة بالجزيرة ؛ ولقي هناك أسرابا من سفن الروم فتنازلها وحطم الكثير منها واستولى على عدد كبير ضمه إلى عمارته ؛ وأصبح للأسطول الإسلامي الصقلي أثر هذه الوقائع سمعة أدخلت الرعب في قلوب الأعداء ولقد اغتنم أبو الأغلب فرصة تغلبه البحري فانزل كتابا من الجند الإسلامي تحتل أغلب الجزائر الواقعة شمال صقلية وغربها ؛ وقد كانت مسكنا للروم ومراكز لتموينهم .

وقائع قصر يانة — في سنة ٢٢٢ ، فتح القائد الفضل بن يعقوب حصن مندار Tinders لكن المسلمين بالجزيرة ما كان ليصفو لهم الجو ، وعلى يمينهم معقل كعقل قصر يانة ، يقض مضاجعهم ويهدد أمنهم بصفة مستمرة ؛ فكان الجهود تبذل من وفقدت بذلك وحدتها ، ودخل عليها العامل الذي أدى فيما بعد لهلاكها ، إذ استبد بالحكم فيها الأتراك ولم يتركوا للخليفة إلا الاسم .

جانب المسلمين باستمرار لمحاولة احتلال قصر يانة كلفهم ذلك ما كلفهم من جزيل التضحيات .

ولقد كان الروم وكانت الجوع المسيحية تعرف اهمية قصر يانة ، وتدر ك قيمتها الحربية ؛ وهي اشبه ما يكون بخنجر ممتد نحو قلب المراكز الاسلامية ، وتدر ك فوق ذلك قيمتها الادبية ؛ فهي تمثل رمز المقاومة المسيحية بهاتيك الديار .

هاجم المسلمون مراراً قصر يانة ؛ واخفقوا تحت جدرانها مراراً ؛ وما صدم الاخفاق عن موالات الهجوم ، ولم تثن عزيمة المسلمين هنالك عزيمة الروم ؛ فهما اشتد اولئك في الهجوم العنيف اشتد هؤلاء في المقاومة الباسلة ، والتقت هنالك وجهها الى وجه بطولة المسلمين وبطولة الروم ؛ وسجل الفريقان على ميدان الفروسية والشهامة صحائف فخر لا تبليها الايام .

ولقد احتل المسلمون قصر يانة احتلالاً موفتاه قصة طريفة سنة ٢٢٣ ذلك أن ثمة من الجند الاسلامي كانت مرابطة تجاه المدينة لاهي تستطيع احتلالها ولا الروم يستطيعون ابعادها ففى ليلة من الليالي كان أحد المسلمين بغامر منفرداً تحت جدران المدينة يطوف حولها وإذا به يجد ثغرة وليس عليها حرس من الروم فانطلق يعدو الى حيث معسكر المسلمين واخبرهم بالا مر فتناولوا سلاحهم وانطلقوا خلفه الى حيث تلك الثغرة فاجتازوا منها الى المدينة والروم فى غفلة وما شعر هؤلاء الا واصوات التكبير والتهليل قد نصاعدت الى عنان السماء ، وقد ملك المسلمون المدينة فانسحب الروم الى بعض الابراج وتحصنوا بها ، وامن المسلمون سكان المدينة على انفسهم واموالهم ؛ ثم انسحبوا منها بعد حين ، نظراً لقلّة عددهم والكثرة الروم المحيطين بها ، ورجعوا الى مراكزهم الاولى وعاد الروم لاتحصن بها من جديد المسلمون فى ايطاليا الجنوبية — وفى سنة ٢٢٣ (١) حيث كانت تجرى هذه

(١) فى منتصف هذه السنة توفى بالقيروان ملكها العظيم زيادة الله بن الاغلب

الوقائع في داخل الارض الصقلية ؛ كانت انظار المسلمين تتجه الى ابعد من ذلك ، كانت تتجه صوب البلاد الطليانية محاولة فتحها ومهاجمة القارة الاروية من الوسط فان ابا الاغلب ارسل باسطوله العتيد نحو بلاد قلورية تحمل جنداً مدرباً ، فـهـزم الاسطول ما لقيه في طريقه من مراكب المسيحيين ونزل الجند الاسلامي في جنوب ايطاليا حيث سجل صفحة من اغرب صفحات التاريخ الاسلامي بالارض الاروية لقد كان المسلمون ينتهزون الفرص الموثوب على الارض الطليانية بصفة قوية تمكنهم من فتحها والاستقرار بها ؛ ونشر انوار المدنية الاسلامية على انقراض ظلمات القرون الوسطى .

وفي هانيك الاثناء كانت مملكة نابولي الطليانية تحارب امارة بينفان Bénévent جارتها ؛ وكانت هذه الامارة قد تغلبت على جند نابولي ، فارسل ملكها رسالاً الى بالرمة يستنجدون ابا الاغلب ضد خصمهم ، ورأى هذا ان الفرصة سنحت للتدخل في سياسة البلاد الطليانية فارسل فرقة من الجند الاسلامي تشاركت مع جند نابولي في محاربة امارة بينفان ؛ حيث غلبت هذه الامارة ؛ ورضخت لشروط الصلح ؛ واصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابولي ، ورأى رجال هذه الدولة ما المسلمين من قيمة في ميدان العلم والامران علاوة عما كان لهم من قيمة في ميدان الحرب والطعان ؛ فانفتحت في وجوه الرواد المسلمين ابواب المملكة وكانوا يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون ؛ وكان ذلك هو حجرة الاساس في تكوين عصر النهضة باروبا (La Renaissance)

ولقد كان المسلمون المغاربة قد نزلوا ارض قلورية بالجنوب الطلياني سنة ٢١٩ (٨٣٠) واستولوا على مدينة طارنطة Tarente واتخذوها مركزاً لأعمالهم ،

الكبير بعدما وطد سلطان الدولة على اسس متينة بافريقييا وصقلية ونظم دولته فاحسن تنظيمها ، وكانت ايامه ازهر ايام الدولة الاغلبية .

ثم ارسلوا غزواتهم البحرية حتى مصب نهر بو في شمال ايطاليا ، وانتظم يومئذ امرهم بالبلاد واتخذوا مدينة باري Bari عاصمة لأمارتهم التابعة راساً لبلاط القيروان ، وجهازوا اسراباً برآ وبحراً افتتح مدينة رومة فتمكنوا من ارباضها وبعض قلاعها ، لكنهم تخلوا عنها في آخر الامر لخلاف شجر بينهم وانسحبوا الى امارتهم . وفي سنة ٢٣٩ ، اثر هذا الاخفاق اعلن مفرج ابن سليمان عامل الاغالبية ، استقلاله بالجنوب الطلياني في مدينة باري وحارب الامارات الطليانية المحيطة بامارته فدحرها ووسع املاكه واتخذ من مملكة نابولي حليفاً وفيها ، وكانت مراكبة قوية جريئة دحرت اسطول الروم القادم لاسترجاع البلاد ، واضطرته الرجوع على اعقابها ثم احتل مدينة اوترنت Otrante واحتل مدينة Carigliari ، ووضع بهما جاليات اسلامية ؛ ونصب الحصار على مدينة قابو Capoue انما لم يتمكن من احتلالها وهكذا دانت لأماره مفرج بن سليمان حول مدينة باري كامل البلاد الطليانية الجنوبية .

فتح مسينا — كان الروم قد استرجعوا مسينا من يد المسلمين ، وكانت هذه المدينة همزة الوصل بين صقلية وايطاليا ، فتمكن الروم من البقاء بها مساه انقطاع الصلة بين شطري الواجهة الاسلامية ، لذلك سار القائد الفضل بن جعفر على رأس جند عتيد ، فحاصر مسينا وثبتت امامه ثباتاً عجيباً ؛ وكان يقاقلها من جهة البحر ، فارسل فرقة من جنده هاجمتها على غفلة من ورائها من جهة الجبال ، فتمكن من احتلالها فاستسلم مقاتلوها وطلبوا الامان فامنوا .

فتح لسي — سار الفضل بن جعفر اثر ذلك قاصداً مدينة لسي ، وكانت حصينة متينة التحصين انما كانت حاميتها قليلة العدد ؛ فعندما رأى اهلها قدوم الجند الاسلامي استنصروا بطريق قصر يانة طالبيين منه النجدة فراسلهم يقول انه منجدهم بمدد وانهم متى رأوا ناراً اوقدت على الجبل المشرف على المدينة فعليهم ان يفتحوا بابها في وجه النجدة القادمة لنصرتهم .

هل وقم الرسول والرسالة في يد القائد الفضل بن جعفر ، ام كانت له عيون اخبرته بذلك النبا ؟ الامر المحقق هو انه علم جليلة الخبر ، فاعد جنده ليلا واوقد على الجبل نارا ، ففتح اهل المعقل ابواب حصنهم وخرجوا للملاقات النجدة فما راءهم الا والجند الاسلامي يهاجمهم من كل جهة ويقتحم عليهم الابواب ويستولي على المدينة وعلى حصونها ؛ وكان ذلك سنة ٢٣٢ (١)

واستمر الامير المعظم ابو الاغلب ابراهيم يدير امارته بهمة عالية وبوالي اعماله بين قطبي السيف والقلم الى ان توفاه الله سنة ٢٣٨ ؛ وقد كان شهما كريما جوادا وهو ابن اخي الملك زيادة الله ؛ وقد قص علينا ابن الخطيب في كتابه اعمال الاعلام قصة ترينا مثالا من جوده وشهامته ، قال :

« يحكى من اخبار كرمه انه اشرف يوما من دار الامارة فرأى امرأة قد هيات فرخين ونظفتهمما وطبختهما طبخا محكما ؛ فلما انزلت القدر وقد ادركت دعا بعض فتياه واره الدار وقال اذهب فاجعل القدر في قفة وجثني بها ، ففعل واكل منها . ثم امر بفسل القدر ففسلت ؛ وامر بكيس دنانير ففرغ في القدر حتى امتلأت . وقال للغلام امض بها فاجعلها في يد المرأة ولا تقل لها شيئا ففعل وارادت المرأة ان تطبخ بها شيئا آخر فكشفتها فاذا هي مملوءة دنانير . »

(١) انتهت ببغداد فتنه القول بخلق القرآن ، وقد رأى الخليفة الواثق بالله في آخر ايامه ان هذه البدعة لم تلق اي نجاح وانها اوقعت العداوة والبغضاء بين المسلمين ؛ وقد انتهت الفتنة على يد الشيخ ابي عبد الرحمان الاسدي ؛ شيخ ابي داود والكسائي ؛ اثر مجلس مناظرة شهير .

وان كان الواثق قد بيض صفحة تاريخه بترك القول بخلق القرآن فقد سودها بوضعه في بغداد الى جانب الخليفة ؛ سلطانا من الترك البسه بيده التاج وجعل له الحكم المطلق ؛ فنسف بذلك سلطة بني العباس .

العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة

ويعرف بابن بربر

كان في صقلية عين الاعيان ، وكانت له الصدارة والامارة والمقام الاول اثناء ولاية الامير السالف الذكر ، اي الاغلب ابراهيم .

فما كاد هذا الراحل الكريم ينتقل الى جوار ربه ، حتى اجتمع اهل صقلية امرهم على توليته الامارة ؛ وبايعوه على السمع والطاعة ، وارسلوا وفداً منهم الى القيروان يطلب الى اميرها محمد بن الاغلب المصادقة على ذلك الاختيار . ونال الوفد مرغوبه فرجع الى العباس بن الفضل بعهد الامير الاعلى على ولاية صقلية .

فتح قصر يانة — كانت همة العباس متوجهة لانجاز الفتح ، واستخلاص البقية

الباقية من جزيرة صقلية بايدي الروم والمسيحيين ؛ وهيهات ان يتم ذلك مادام هؤلاء يعتزون بصياصيهم في قصر يانة ، ويتحدون من تلك الاعالي سلطان المسلمين كانت قصر يانة ميدان حرب وجلاد منذ عشرات السنين ، وكأن الله كتب المسلمين ان يفتحوها نهائياً كما فتحوها اول مرة بواسطة التسال من ثغرة الى داخلها ؛ واليك البيان :

قبضت سرية من سرايا المسلمين عدداً من الاسرى ، ورأت ضرب اعناقهم ، فقال احدهم وقد تولاه الجبن واستولى على نفسه الصغار : استبقوني وان لا ميركم عندي نصيحة تمكنكم من فتح المدينة ؛ فساروا به الى العباس فاستفسره عن جلية الامر ، وكانت النتيجة ان الخائن اخذ الامان لنفسه وآله وذويه مقابل السير مع الجند الاسلامي ليريه طريقاً سورياً يمكن منه ولوج المدينة دون انتباه الحراس .

بادر العباس برسالة كتيبة من المقاتلة ، تحت امره ، والعليج الخائن

وكان الواثق اعلم الخلفاء بالغناء ؛ وقد وضع نحو المائة صوت وله الف ابو

الفرج الاصفهاني كقابه الشـير « الاغاني »

يدلهم على الطريق ، حتى اوصلهم الى قناة يخرج منها ماء المدينة ، فاجتازوا تلك القناة حتى اصبحوا داخل المدينة ، ثم انشؤا الى الابواب فاعملوا السيوف في رقاب الحراس ؛ وكانت جموع الجند الاسلامي مستعدة للحملة من الخارج ، ففتحت الابواب ودخلها المسلمون ، وراى المدافعون عن المدينة ان المقاومة أصبحت لاتجدى نفعا فاستسلموا للأسر ، والقوا بالسلاح بين ايدي الغالبين ، وكان ذلك في منتصف شوال سنة ٢٤٤ ؛ وجاء العباس بنفسه الى قصر يانة فاسكن بها المسلمين وأمر ببناء مسجدها ، وحضر افتتاحه وأدى به فريضة الجمعة .

محاولة فتح رومة — راي العباس من توافر القوة بين يديه ، واجتماع

الناس عليه أن الفرصة قد سنحت لضرب المسيحية الضربة الحاسمة وانجاز العمل الذي فشل فيه المسلمون منذ سنة الا وهو فتح رومة .

ففي سنة ٢٣٩ ؛ جهز العباس اسطولا ضخما بحمل جنداً عتيداً وسيره لانجاز ذلك العمل فزل الجند الاسلامي عند مصب نهر التبر ؛ واحتل مدينة اوستي Ostie واخذ يستعد للهجوم النهائي .

الا ان المسيحية التي شاهدت الخطر منذ سنة ؛ وايقنت ان المسلمين سيعيدون الكرة لامحالة ؛ كانت مستعدة لتلقى الصدمة وكان الاسطول المسيحي قوياً عتيداً ؛ فما كاد المسلمون يباشرون هجومهم حتى بدت في الافق طلائع اسطول العدو وعلمت قيادة المسلمين انها لا تستطيع ان تقهر الاسطول وترده على اعقابها ؛ وانها لا تنجو من كوارثة وييلة الا بالانسحاب السريع ، فالقت امرها الى الجند الاسلامي بالرجوع الى مراكبه واستطاعت بمهارة غريبة النجاة من العدو المحقق بها اذ تسالت من بين مراكبه فلم يستطع ان ينالها بسوء واخفقت الحملة على رومة مرة اخرى .

محاولة فتح كريت — سار الاسطول الاسلامي تحت امرة اخي العباس

يؤم سواحل المتوسط الشرقي ، لبسط سلطانه على اقاض سلطان القسطنطينية وليفتك منها سيادة البحر .

حط الاسطول مراسيه حوالي جزيرة اقريطش وناوشها القتال ، فكانت قوية على الدفاع وكانت مستعدة لتلقى الصدمة ؛ فاصتفى الاسطول الاسلامي الصقلي بضربات اصاب بها اسطول العدو ، ورجع لصقلية عائداً بفنائم واسلاب .

انهزام الروم في البحر — كان لا انتصار المسلمين بقصريانة واندفاعهم الجريئي

في غمار البحر المتوسط اثر عظيم في نفوس الروم ؛ وقد علمت القسطنطينية انها ان لم تفض على هذه الدولة الناشئة في صقلية فان نفوذها سيتقلص نهائيا عن حوض البحر المتوسط الغربي ؛ لذلك جهز الروم اسطولا يجمع ثلاثمائة شلندي (١) يحمل نجدات قوية ، وارسلت به مدداً لمدينة سرقوسة ، ليحميها من غارت المسلمين وليمكن الروم من اعادة الكرة واسترجاع البلاد .

لكن سيادة البحر كانت قد انتقلت نهائيا من ايدي المسيحيين الى ايدي المسلمين ؛ وكان العباس ورجال البحر بالمرصاد ، فصمد الاسطول الاسلامي لاسطول الروم وابدى كل من الفريقين اقصى ما لديه من مهارة المناورة وانهت المعركة بنصر اسلامي مبين ؛ اذ استولى المسلمون على مائة من مراكب الاعداء ، ولاذ الباقيون بالفرار راجعين الى بلاد الروم . ويقول ابن الاثير ومن نقل عنه من المؤرخين ان ذلك النصر العظيم لم يكلف المسلمين من الخسارة الا ثلاثة فقط اصابوا بالنشاب ؛ على انني ألاحظ ان في هذا الخبر مبالغة لا تخفى على بصير ، اذ لا يعقل ان معركة بحرية تسفر عن اسر مائة سفينة وانهزام مائتين آخرين لا يخسر

(١) نوع من السفن النقال يدعى بالفرنسية Chaland وقد استعمل العرب هذه

الكلمة وجاءت بلفظها في كتب التاريخ كابن خلدون وابن الاثير وغيرهما .

المنتصرون فيها الا ثلاثة من الشهداء .

بعد هذا النصر العظيم عزم العباس على فتح سرقوسة ومخيطيم آخر امـل الروم في البلاد ، فسار اليها على رأس الجند الاسلامي ؛ لكن المرض اعتراه وهو على مقربة من المدينة ؛ فاسلم روحه لبارئها في ذى الحجة من سنة ٢٤٧ (١) وانطوت بموته صفحة من اجمل وازهر صفحات الجهاد في سبيل التوسع والنور والمدينة ؛ ودفن بموقع استشاده ، فنبش الروم قبره واخرجوا جثته واحرقوها تشفيا وانتقاماً

عبد الله بن العباس بن الفضل

اجمع المسلمون امرهم يومئذ على تولية ابنه عبد الله ، كما اجمعوا من قبل امرهم على تولية العباس مكان ابيه ؛ فاستلم عبد الله بن العباس زمام الحكم من يد الامة وقد كان في حياة ابيه العظيم معاوناً له في حروبه وادارته . وأخذ يستعد لأخضاع سرقوسة وبنازل قلاع الاعداء .

على ان الوفد الذي سار الى القيروان يطلب من اميرها المصادقة على تولية عبد الله الامارة مكان ابيه لم يبق بها النجاح الذي لقيه من قبل وفد الصقليين عندما طلب المصادقة على تسمية العباس بن الفضل .

ذلك ان بلاط القيروان ادرك مقصود الصقليين وعلم انهم ارادوا هنالك الاستقلال بامرهم تحت امرة عائلة ابن الفضل يتوارثونها خلفاً عن سلف وبذلك تنقلص سلطة القيروان شيئاً فشيئاً ؛ فامتنع عن المصادقة واصدر امره لعبد الله بترك

(١) في هذه السنة قتل في بغداد المتوكل على الله ؛ قتله قائد الترك (بغا) مع وزيره الفتح ابن خافان صاحب كتاب قلائد العقيان ؛ وقد اصبح الترك يومئذ اصحاب القول المطلق في بغداد . وتولى بعده المنتصر بالله ؛ فكان كما قيل فيه :

خليفة في قفص بين بغى و (بغا)
يقول ما قال له كما تقول البيضاء

الولاية ، بعد ان شغل مركزها السامى خمسة اشهر سائرا فيها سيرة ابيه وجده ،
مواليا للجهاد ساهراً على امور الرعية فصدع بالامر عن غير مضض واصبح من
اكبر انصار الوالى الجديد .

خفاجة بن سفيان

قدم الى صقلية فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ ، وكان شهما على الهمة طويل
الباع فى السياسة وفى الحرب ؛ واتخذ لنفسه من ابنه محمد ، والولد نسخة من ابيه ،
عضداً متيناً يخضد به شوكة الاعداء ويدير بواسطته سياسة الملك .

ابتدأ اعماله الحربية فى الناحية التى بقيت بيد المسيحيين فى شرق الجزيرة ؛
باحتيال مدينة نوطس (نوتو) مضيقاً بذلك الحصار على مدينة سرقوسة التى كانت
رافعة علم المقاومة بتلك الديار ، وكانت آمال الروم وآمال سائر المسيحيين فى
استرجاع الجزيرة الصقلية معلقة عليها .

المرأة فى السياسة — لم تقم المرأة المسلمة بدور مباشر كبير فى السياسة

العامة ، وكانت قصارى جهودها من تلك الناحية هى بسط السلطان على قصور
الامراء والوزراء والقواد ، والاستحواذ بتلك الصفة على النفوذ المطلق وتوجيه
السياسة العامة حسب ما يترأى لها من مصلحة خاصة او نفع عام ؛ على ان التاريخ
ضئير بسر هاتيك الحوادث الا ما ذاع واشتهر منها .

لكن من نوادر المسلمين فى جزيرة صقلية ان امرأة مسلمة شاركت بصفة فعلية
فى عمل سياسى كبير ، وارسلت فى سفارة ومهمة شاقة .

كان أهل طرميس يوالون القتال ضد المسلمين وكانت معاقلم من امنع المعاقل
واشدها مراساً ولقد حاول المسلمون مرارا أن يدكوا اسس هاتيك الصياصر فما
استطاعوا لذلك سبيلا واخيرا أظهر المسيحيون هناك جنوحها المسالمة والتسليم
وارسلوا الى خفاجة يطلبون اليه ارسال وفد يفاوضهم ويضع معهم شروط الاستسلام

فارسل اليهم امرأته واحدا بناته ولا ريب ان امرأة مثل هذه المرأة تسير بمثل هذه المهمة فتخترق صياصي الاعداء ومعاقهم وتفاوضهم في عقد دارهم تطالب اليوم الاذعان والاستسلام لمي من مفاخر الجنس اللطيف وهي من كرائم السيدات المسلمات اللاتي يجب ان يحفظ لهن التاريخ ذكرهن العاطر الحسن وهي مع ذلك عنوان ازدهار مدينة وبلوغها اوج القمة ودليل قاطع على ما احرزته السيدة المسلمة من قيمة عليا في المجتمع الزاهر تحت الراية الاغلبية بافريقيا او بصقلية

نجحت السفارة نجاحا كبيرا وكأن اقوم قد تأثروا بذلك المعنى البديع اللطيف الذي احتوى عليه ارسال سيدة جبات على الخير والاحسان والعطف فلبوا دعوتها واذعنوا لامرها وساموا مفاتيح المدينة لها فدخلها المسلمون صامحا

لكن قضى الله ان تهاك المدينة على يد اشرارها فنقضوا العهد بعد ميثاقه وثاروا بالمسلمين على حين غفلة فاخرجوهم غدرا واوصدوا دونهم الابواب ونكلوا بمن بقي منهم داخل الجدران ثم اعتصموا بالقلاع .

رأى خفاجة يومئذ ان السكوت على مثل هذه الخديعة يعد ضعفا وهوانا وانه ان ترك الامر بدون انتقام يوشك ان يتخذ القوم نموذجا للانتقاض في كل مكان ، فارسل ابنه المجاهد محمد ، على راس كتيبة من المسلمين شديدة المراس ، فاحتل المدينة قسراً وسبي اهلها ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة .

مقاومة سرقوسة — كانت سرقوسة كما اسلفنا قوية منيعة ؛ وكانت محط

آمال المسيحية بتلك الديار ؛ وكانت القسطنطينية توالي انجادهها بالمدد رغم ما اصابها في ذلك الطريق من نكبات بحرية ؛ فالتجته همه الامير خفاجة لقهر سرقوسة واتحاد جذوة المقاومة فيها فرماها بفلذة كبده محمد ؛ على رأس جند عتيد واشتعلت بين الفريقين نار حرب عنيفة استبسل فيها المدافعون استبسالاً سجل لهم صفحة من العزة والفخر .

وكانت الوقائع تترى عنيفة دامية ، منها وقعة الالف فارص الشهيرة سنة ٢٥١ وتفصيلها ان الامير محمداً هاجم المدينة بعنف ، ثم اظهر الارتداد خدعة حربية ، وشركا نصبه للمدافعين عنها فوقعوا فيه وخرجوا من معاقلم يتتبعون الجند الاسلامي الذي اظهر الانزمام ؛ وكان الكمين الاسلامي يكتنف الطرق ، فباشارة من القيادة انقض المسلمون من مكانهم على الاعداء المتتبعين فاطبقوا عليهم واسفرت المعركة عن قتل الف فارص من الروم .

وفي سنة ٢٥٤ ، سار محمد بقوة بحراً لمنازلة سرقوسة كما كانت قوته البرية تضيق عليها الخناق ، فالتقى في مياه المدينة بعمارة كبيرة ارسل بها امبراطور الروم نجدة المحصورين ، وكان الاسطول الاسلامي الصقلي قد تعود قهر اسطول الروم حيثما اتفه ، فاختلطت صواري المسلمين بصواري النصارى والتحمت نيران المعركة البحرية ، فاسفرت عن انهزام الروم ، وتركهم لاغلب سلاحهم ومتاعهم بايدي المسلمين وفرت المراكب السليمة راجعة على اعقابها خاسرة .

وهكذا فت في عضد الدفاع السرقوسي بحراً كما فت في عضده برأ ؛ واصبحت المدينة لا تستطيع الثبات في الميدان طويلا لكنها صممت على الدفاع الى آخر رمق ، ولم يكتب الله فتحها على يد خناجة وابنه محمد .

حادثة طبرمين — كانت هذه المدينة من جملة قلاع النصارى التي صعب على

المسلمين فتحها بالقوة ، فكانت المناوشات تتوالى حولها ، وكان دفاعها دفاع المستعيت جاء الامير محمد ، وصمم على فتحها ، فاصطنع رجلا من اهلها اعماه حب المال والجاه عن حب الوطن والتضحية في سبيله فخان امته واصبح دليلا للمسلمين ، يسير بهم في معابر سرية اوصلتهم الى داخل المدينة والتحمت نيران المعركة هنالك راى المسلمون ان الامير محمدا لم يدخل المدينة ولم يكن الى جانبهم فاعتقدوا انه قد حيل بينه وبين الدخول وانهم اصبحوا مهددين بالحصر فانهزموا ورجعوا

من حيث اتوا ، وكانت الفرقة التي يقودها الامير محمد بن نفسه قادمة حينئذ لتجدة الدين دخلوا ، فلما راتهم خارجين اعتقدت انهم غلبوا على امرهم فتوقفت عن السير واثناء ذلك الارتباك ، وقبل ان يعلم الفريقان المسلمان ان في الامر غلطة يسيرة ، كان اهل المدينة قد تخلصوا من المسلمين فاوعدوا ابوابهم واعتصموا بأسوارهم ، وخابت المحاولة بعد نجاح .

فتح مالطة — كانت جزيرة مالطة معقلا من معاقل الروم في البحر المتوسط استولوا عليه سنة ٥٣٣ ، واصبحت حلقة وصل بين ممتلكاتهم في الشرق ومطامعهم في الغرب .

والجزيرة نمسح ٢٥٠ كيلو مترا مربعا ، جيدة الهواء خصبة الارض طيبة المناخ واهلها من اصل سامي كنعاني لا ريب فيه ؛ لغتهم منذ القدم عربية محرفة وقد طبعهم الاحتلال القرطاجني الطويل بطابع خاص دام معهم الى يومنا هذا .
فالامير خفاجة رأى انه لا يتمكن من ابعاد الروم نهائيا عن صقلية وقطم آمالهم منها وقهر سرقوسة الا باخضاع مالطة لسلطانها ، ومالك مالطة منذ قديم الازمان مهيمن على البحر المتوسط بأسره .

سار الامير محمد على راس اسطول عتيد وجند عتيد ، فنزل مالطة سنة ٢٥٦ (١٨٧٠ م) وانتم استيلاءه عليها تلك السنة ، بعد ان دحر مقاومة الاسطول الرومي

(١) في هذه السنة تولى الامير احمد بن طولون امر مصر ، وطولون كان مملوكا تركستانيا اسر ضمن معركة ، فاعجب به الخليفة المامون ، وجعله من خاصته ورئيس حرسه ، وعندما ولي احمد امر مصر وكان اعلم الناس بضعف دولة بني العباس ، ورأى حالة مصر من جراء اضطراب الولاة وهوجهم ؛ اعلن استقلاله في البلاد ومنع الخراج عن بني العباس ؛ واستمرت دولته ٣٥ سنة الى ان اعاد العباسيون فتح مصر من جديد ؛ ومن مآثره مسجد ابن طولون العظيم .

ومقاومة الحامية الرومية ، ووجد المسلمون الافارقة الصقليون انفسهم هنالك بين قوم كادوا يكونون من اهلهم وذويهم ؛ واستمر سلطان المسلمين هنالك قابعا لأماره صقلية ، مائتين وعشرين عاما (٨٧٠ - ١٠٩٠) الى ان استخلصها منهم غزات الترمان عندما دحروا آخر مقاومة اسلامية في جزيرة صقلية .

وفي السنة الموالية ، اى سنة ٢٥٧ ارسل الامبراطور الرومي اسطولا ضخماً يحاول به استرجاع مالطة ، وقد ادرك ما هي الكارثة التي اصاب الروم بفقدائها ، فجاء الاسطول الرومي يتباهى بقوته ومنعته ونصب حول الجزيرة حصاراً ، واخذ يستعد لانزال جند يرفع فوق اديمها علم القسطنطينية .

حينئذ جمع الاسطول الاسلامي الصقلي رجاله وسفنه وسار نجدة الى جزيرة مالطة ؛ ولقد علم الروم من قبل انهم ما لقوا اسطول مسلمي صقلية الا وارتدوا امامه خاسرين ؛ وقد التقى ذلك الاسطول الاسلامي الرعب في قلوبهم واصبح منظره يكفى لهزم اعدائه قبل استعمال ناره واسلحته ؛ وهكذا كان . فانه لم يكد اسطول الروم يرى مراكب المسلمين قادمة نحوه حتى نشر شراعاته واعمل مجاذيفه ولاذ بالفرار نحو الشرق وصفا حكم مالطة لامراء المسلمين .

محمد بن خفاجة

اثناء هذه المعارك وهذا الفوز المبين كان الامير خفاجة يسير مع جنده واتباعه في طريق سرقوسة فاغتناله غدرا احد الجند ولا ندري ان كان ذلك نتيجة مؤامرة او عمل انتقام او دسيسة من الاعداء ففضى نحبه رحمه الله بعد ولاية دامت سبعة اعوام كلها عمل وجهاد في سبيل الاسلام والمعرفة والمدنية

اتفق المسلمون يومئذ واجمعوا امرهم على تولية ابنه الامير محمد مكانه ولقد كان القائم بأعباء الجهاد الى جانب ابيه وسار وفد الى القيروان يطلب الى الملك الاغلي محمد بن احمد المصادقة على تلك الولاية قلبى الطلب واصدر امره باسناد

امارة صقلية الى محمد بن خفاجة لانجاز ما كان قائما به من جلائل الاعمال .
وقد اولاه المسلمون امرهم في رجب سنة ٢٥٥ ووردت اليه الخلع والعهدة
من القيروان يوم السبت لست بقين من رمضان من تلك السنة .
وقد كان الامير رحمه الله يوالى استعدادده ويجهز المسلمين للقضاء على ما بقي
من صقلية بايدى الروم وخاصة مدينة سرقوسة التي كانت مطمح انظاره .
لكن مقتل الامير خفاجة كان قد احدث صدعا عظيما في صفوف المسلمين
ونشأت عنه ارتباكات عظيمة جعلت جهود الامير متوجهة لاقرار السلم وتهديد
الراحة بدل التوجه بكلمته لانجاز الفتح . وما كادت تنقضى سنتان على ولايته حتى
اغتاله نهارا ثلاثة من خدمه في رجب سنة ٢٥٧ . ولقد انفتحت بمقتل الشهيد بن
خفاجة وابنه محمد ابواب فتنة عمياء اصبحت في الجزيرة داء عياء كان اكبر
اسباب انهيارها .

أحمد بن عمر يحيى

وهو من رجالات العائلة الاغلبية اولاه الامير ابراهيم بن احمد بن الاغلب امر
صقلية وكان اول همه اقرار الامن وارجاع الطمانينة الى النفوس وازالة ما احدثه
مقتل الأمير بن محمد وابيه خفاجة من جزع ومن ارتباك

لا ريب ان الامير احمد قد لقي نجاحا كبيرا في مهمته تلك فلم يسجل
التاريخ في ايامه ارتباك او اضطرابا ؛ وعاد الى سياسة الغزو والفتح ، جامعاً
بذلك كلمة المسلمين حول راية الله .

ذهب في صائفة تلك السنة غازياً نحو سرقوسة فأنخن في الروم ، انما لم
يستطع فتح المدينة ، ولانصب الحصار بصفة ضيقة حولها فاكتفى بما غنمه من اطرافها
ورجع الى قصر حكمه في بالرمة .

ثم خرج بنفسه في غزوة على رأس المسلمين ، فلقى جنداً من فرسان العدو

عند مكان يدعو ابن الخطيب « قلعة نصر » وكان اولئك الفرسان قد انقضوا في بعض الجهات على المسلمين وغنموا منهم مغانم كثيرة ؛ فالتحم احمد ومن معه في القتال مع الجند المسيحي ، فنكل به تكيلا ، وانتزع من بين ايديه جميع ما غنمه من المسلمين ورجع الى بالرمة بالاسلاب والغنائم والاسرى ورؤوس القتلى لتعرض على الملا .

ثم جاءه من القيروان ، امر ابراهيم بن احمد بن الاغلب بعزله عن الامارة فاعتزلها ؛ وكان بذلك ابتداء عهد اضطراب جديد لم يكن مصدره صقلية نفسها بل كان مصدره عاصمة الدولة القيروان ؛ اذ كان البلاط الاغلبى يقاسي يومئذ ازمة عنيفة ، وقد تولى عرش الملك ابراهيم الآنف الذكر ، وهو جبار عنيد طاغية شديد كان مصابا بنوع من المستريا الدموية ، يعيش تحت رحمة مالىخوليا مستمرة ؛ وسيأتيك فيما يلي شيء من اعماله الغريبة ، فلا غرو ان تسربت الى المملكة قاصدها ودانها عوامل الشقاق والافتراق ، واخذ الصيادون فى المياه العكرة يملون اعمالهم وينصبون حبالهم ، واصبحت اماره صقلية خلال تلك الايام النحسة كرهة تتلقفها الابدى وتلاعب بها الغايات .

جعفر بن محمد بن بربر

ارسله ابراهيم بن الاغلب واليا مكان احمد بن عمر ؛ واستقر به المقام فى بالرمة ، واخذ يعيد النظام لبلاد تسربت اليها الفوضى واخذت تعمل بها عوامل الانحلال .

فى هاتيك الاثناء ، كان الارتباك كما اسلفنا سائدا فى بلاد القيروان وكان ابراهيم الطاغية يقاسى ازمة عنيفة فى داخل نفسه وفى بلاطه وبين آله وذويه ، وكأنه قد آنس من عائلته ميلا لتخلص منه ، فاقى القبض على عمه الاغلب بن محمد واخيه الاغلب ابن احمد وابن اخيه احمد بن ابى عبدالله ؛ ووجههم الى صقلية

مبعد بن فحسوا في دار الامارة عند جعفر بن محمد .

كان احمد بن ابي عبدالله اكثر الاغالبية المحبوسين مكرراً ودهاء ، واقدمهم على الاندفاع في طريق المغامرة ، فصانم هو ومن معه من رجال العائلة غلمانا للامير جعفر ، واطمعوهم في المال والجاه ان هم قتلوه ، فترصدوا له حتى اذا كان خارجا للصلاة وثبوا عليه واسقطوه تحت ضرباتهم الفتاكة ؛ واستولى احمد على كرسي الحكم ، مصطنعاً الرجال متغلباً على الامر .

احمد بن ابي عبد الله الاغلبى

ويلقب في عائلته باسم « خرج الرعونة » ولقد كان مقداما ، وسجل اسمه على صفحات التاريخ الصقلى ، رغم سفالة الوسيلة التي توصل بها الى الحكم ، وكانت له في الجهاد وانجاز الفتح اعمال باهرة .

فنج سرقوسة — انتم تجهيز الجند الاسلامى ؛ وسار على رأسه نحو مدينة

سرقوسة ، وقد عقد العزم على افتكاكها كلفه ذلك ما كلفه ، وكانت سرقوسة بعد ان قاومت جيوش المسلمين نصف قرن ونيف ، قد ضعفت تحت الضربات الفتاكة التي كملت لها من لدن الامراء السالفين ، وعلى الاخص الامير خفاجة وابنه محمد ، وكان الروم قد وضعوا شرفهم العسكرى بين جدران تلك المدينة ، فكأنوا ابوالون ارسال النجيدات والمدد وما باءوا بانكسار وانهم اسطول إلا اعادوا الكرة وارسلوا اسطولا آخر مما يعيد إلى اذهانتنا جهود قرطاجنة الجبارة التي ضاعت سدى في تلك الجزيرة

سار أحمد بن الاغلب بقوة العتيدة فخميم حول المدينة وحاصرها وضيق عليها الخناق . وعلم اهلها ان الساعة الاخيرة قد دنت ، فقاموا للدفاع البائس المستميت يتفانون في الذود عن مدينة كانت في انظارهم تمثل الوطن وتمثل الدين وتمثل الذكريات القديمة من عهد ارخميدس وما قبله ؛ ويالله! ما اروع البطولة وما اجمل

ذكرها أيا كان مصدرها وأنى كان القائمون بها !

استمر الحصار تسعة أشهر من أوائل المحرم الحرام إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ (٨٧٨) (١)، ثم دهمها بخيله ورجله ورفع المسلمون عقيرتهم بندا لهم الحربى الذى يسمو بهم إلى عالم الأرواح فى الملاء الأعلى : الله أكبر : والتحمت نيران معركة ربما كانت أكبر معارك صقلية وأكثرها هولاً : وما انتهت إلا بعد أن دكت الأسوار وسقطت القلاع وجندل من الأبطال المدافعين ما يزيد عن الأربعة آلاف كمنيت وركب الباقون البحر مغامرين فراراً من الأسر والذل ، ودخل المسلمون المدينة مهالين مكبرين ؛ قال ابن الخطيب فى أعمال الاعلام : « وأصاب فيها من القنائم ما لا يوجد فى مدينة من مدن الشرك » .

وبهذا النصر الباهر لم يدق للمسيحيين بصقلية إلا الناحية الشرقية فى شريط من الأرض يمتد من شمال طبرمين الى جنوب قطانية يحتمون فيه وراء جبال الاتنا (جبل النار) ويستمدون فيه الاعانة مما يرد عليهم بحراً من بلاد الروم . وكانت هنالك مراكز للمقاومة المسيحية بالشمال الغربى من الجزيرة حول مدينتى طرابنة ومرسالا . وقد أهمل المسلمون شأنها ، ولم يعبروها كغير اهمية ،

(١) فى هذه السنة ، استقر الأتراك فى بلاد الصين ، وتدخلوا فى شؤونها وتوطد سلطانهم فى كثير من الجهات التى هى إلى يومنا موطن المسلمين الصينيين وذلك أن مغامراً صينياً (هوان تشاو) أعلن الثورة ، وتمكن من أغلب البلاد ، من بكين الى كينطون ، فاستعان امبراطور الصين ، بجنان الترك الذى سمع بفرجه بقوة عتيده ، مهدت أمر البلاد ، ودحرت التأثير ؛ واستلم الخان التركى ، مكافأة له على اعانته للامبراطور ، مقاطعة شان سى . واخذ ابن عمه ، مقاطعة لوئان . ونشأت هنالك امارات تركية ، طبعت البلاد بطابعها الى يومنا هذا ؛ حيث المسلمون يمثلون اغلبية البلاد ومنهم بقايا الترك ومن اسلم تبعاً لهم من الصينيين .

موجهين اكثر عنايتهم للناحية الشرقية . فلما فتحوا سرقوسة وجهوا أنظارهم نحو الناحية الغربية كما سيمر بك فيما بعد .

اقام احمد بن الاغلب بسرقوسة شهرين ، ثم كتب اليه عمه الاغلب يشير عليه يتهددها ، كما امر حسان بن النعمان من قبل بتهديم ما بقى من قرطاجنة ، حتى ينقطع آخر امل للروم بتلك الديار ولا يجدوا معقلا يأويهم ان حاولوا النزول للبر . ثم رجع بالرمة لكن مقامه لم يطل هنالك اكثر من شهرين ، وما اغنى عنه انتصار سرقوسة شيئا ، فان اهل بالرمة اغنى كبار القوم واصحاب الحل والعقد بها راوا من اختلال الادارة على يد احمد وعمه الاغلب ومن معهما ما جعلهم يقبضون عليهما ، ويرسلون بهما مصفدين الى القيروان ، وماذا كان ينتظرهما هنالك على يد النمر المتعشش للدماء ابراهيم بن الاغلب ، غير السيف والنطع ؟

الحسين بن رباح

اضطرب امر الولاية بصقلية اثر هذه الحوادث اضطرابا غريبا ، فكان ابراهيم بن الاغلب يولي ويعزل حسب اهوائه وشهواته ، او حسب ما تمليه عليه مصلحة الدولة ، وكان اهل صقلية منذ مقتل خفاجة ، قد الفوا نوعا من الفوضى ، واصبحوا يريدون التحكم في الولاية ويريدون ان يسير اولئك الولاة حسب اهوائهم واغراضهم ؛ وكان الولاة لا يستطيعون في الغالب التوفيق بين رغائب اهل صقلية ورغائب بلاط القيروان وتنفيذ آرائهم الخاصة ، فالبعض منهم كان يشور به الصقليون فيرجعونه الى القيروان والبعض الآخر كان يعزله ابراهيم ويرسل غيره مكانه ؛ والحق ان بنيان الدولة الاغلبية كان قريبا الى الانهيار ، وكانت سياسة ابراهيم الثاني قد اصابت الدولة في مقاتلتها ، فاستمر امرها يسير الى الضعف والانحلال حتى الموت رغم ما كان يبدو عليها بين حين وآخر من وثبات في سبيل الحياة عي اشبه شيء . برجفة المحتضر .

من اجدر هؤلاء الولاة بالذكر ، الحسين بن رباح ، فانه تمكن من جمع الجند وتوحيد الكلمة الى حين ونازل مدينة طبرمين ، رائماً بذلك القضاء على الناحية الشرقية الرومية ، فأتحن في اهل المدينة وقتل البطريق الرومي الذي كان يحكمها ويقود حاميتها .

نكبة بحرية — ولقد سرى داء الانحلال في سائر الجسم الاسلامي فضعفت النفوس ، وكادت تخبو جرة الايمان ، وفقد رجال البحر قوتهم الروحية التي كانت اساس انتصارهم ومبعث الرعب في قلوب اعدائهم ؛ وكانت نتيجة ذلك ان منى الاسطول الاسلامي بصقلية بنكبة كانت وحيدة في بابها .

ذلك ان الحسين بن رباح سير اسطوله غازيا سنة ٢٦٦ ، فلقى اسطولا للروم مؤلفاً من ١٤٠ سفينة ، والتحم القتال شديداً بين الطائفتين ، فتغلب هذه المرة اسطول الروم ؛ وترك المسلمون سفنهم ومتاعهم غنيمة للعدو ، ورجعوا على طريق البر منزمين الى صقلية .

الحسين بن العباس

جاء واليا سنة ٢٦٧ ؛ ورجع للقيروان معزولا سنة ٢٦٨ ؛ اراد التضييق على الروم المحصورين في قطانية وطبرمين ؛ ولم ينجح في ذلك كثيراً ، اذ ان الروم اغتتموا فرصة الانحلال الذي ظهرت آثاره جليلة في الادارة الاسلامية فاصبحوا يخرجون من بين جدران قلاعهم سرايا تضيق على المسلمين كثيراً ؛ وتغنيهم منهم المتاع والاسلاب والاسرى .

لكن همة الحسين بن العباس كانت متوجهة الى تمهيد الامن واصلاح الحالة العامة ، وقد نجح في ذلك خلال السنة التي بقي فيها على رأس الادارة الاسلامية نجاحاً كبيراً .

ابو الحسن محمد بن الفضل

ولي الامر سنة ٢٦٨ ، وكان الامن قد استتب والراحة قد تهتدت بفضل جهود الحسين ابن العباس ؛ فاخذ الوالي الجديد يستعد لدحر قوى الروم التي كانت تعيش في الارض فساداً عندما آنتست من المسلمين ضعفاً وافتراق كلمة .

اتجه على رأس القوة الاسلامية ، يريد جوع الروم في معقلهم الجديد (قلعة الملك) وكان ذلك المعقل هو الذي يقض مضاجع المسلمين ، ويشخن فيهم حيناً بعد حين ، فالتقى الجمعان على مقربة من المعقل ، وكانت طمأنينة الايمان قد رجعت الى نفوس المؤمنين ، فثبتوا امام الاعداء واشتد مراسهم الى ان انتهت المعركة بنصر عظيم ، وخسر الروم ما يزيد عن الثلاثة آلاف من القتلى انتشرت اجداثهم فوق ميدان القتال ثم سار المسلمون نحو (قلعة الملك) فاحتلوها وثبتوا بها الاقدام ، وتركوا بها حامية قوية ، ثم رجعوا لبازمة تحفك على رؤوسهم اعلام النصر .

ثم في سنة ٢٦٩ سار على رأس الجند الاسلامي يريد تحطيم مراكز الروم في الناحية الشرقية ، فالتقى بجند العدو وناوشه القتال ، واخترق في بعض الاوقات صفوفه حتى وصل تحت جدران قطانية ؛ لكن المدينة استعصت عليه ، وكذلك كان امر رمطة فلم ينل منهما مثلاً واكتفى بما استحوذ عليه من غنائم واسلاب ورجع لبازمة في ذى الحجة من تلك السنة . وقضى بقية ايامه ساهراً على امور البلاد مدبراً سياسة الملك ، ممعناً في اعمال العمران والرقى المادي الى ان عزل عن الولاية سنة ٢٧١ في ربيع الاول .

سوادة بن محمد بن خفاجة

هو حفيد خفاجة بن سفيان والي صقلية الطيب الذكر وقد ارسل به ابراهيم ابن الاغلب واليا في منتصف شوال سنة ٢٧١ بعدما عزل عنها علي بن ابي الفوارس الذي لم تطل ايامه اكثر من ستة اشهر ، لم يذكر التاريخ عنها خيراً ولا شراً .

عودة الروم — اهم حدث سجله التاريخ في هذه الايام ، هو عودة الروم بقوة للميدان ، والتحام المعركة الحامية بينهم وبين المسلمين ، كأن الروم قد رأوا من اختلال الادارة في بعض الاحيان ومن تفرق كلمة المسلمين الناشئين عن اضطراب في سياسة البلاط الاغبي نحو صقلية وتوارد الولاة وعزلهم حسب الاهواء والمصالح والاغراض ، راوا في ذلك ما جعلهم يعتقدون ان الفرصة قد سنحت لاعادة الكرة واستخلاص الجزيرة من يد المسلمين .

ابتدت هذه الحملة الرومية الجديدة ، بعقد هدنة مع المسلمين كانت فيما اعتقد خدعة حربية ماهرة ؛ وكان المسلمون قد ارتكبوا غلطة فادحة بقبولها ؛ وقد غرهم ان الروم اطلقوا سراح ثلاثمائة اسير من المسلمين في سبيل ذلك الصلح الموقت ؛ وما كان ذلك الا استعداداً منهم لأمر عظيم ؛ فسا كانت تنتهي الثلاثة اشهر ، حتى كانوا رتبوا امرهم بعد اختلال وحصنوا مرا كزهم بعد ضعف ، وجاءهم المدد العظيم من القسطنطينية تحت امره البطريق مجفور (Nicefors) فانزل جنده البر ، دون ان يلقي اعتراضاً من اسطول المسلمين ؛ وتقدم في جموع وفيرة العدد كاملة العدة ، فاستخلص من المسلمين مدينة سبرينة Santa Severino ومدينة منتية Amantea واشتد الخوف يومئذ على صقلية ، اذ كانت بنفسها وبمجرد قواها لا تستطيع ان تصمد لزحف الروم ان توالى نجداتهم وباشروا اعمالهم بتلك الصفة .

رأى اهل صقلية ان سواده بن محمد ليس بالرجل الذي يصاح لادارة الملك والحرب في مثل هاتيك الاوقات العصيبة ، فاعلنوا خلع طاعته وارسلوا به صحبة اخيه واهله الى القيروان سنة ٢٧٣ .

والذي تجب ملاحظته هنا هو ان اهل صقلية كانوا اذا راوا خلع امير انقياداً لمصلحة عامة او اندفاعاً مع غرض ، قبضوا عليه وارجعوه صحبة اهله الى القيروان ليصنع به الملك ما شاء ويحاسبه على اعماله ؛ فكان ذلك العمل يدل على مبلغ ما

كان لهم من مهارة وحسن تدبير ، رغم القلاقل ورغم الاضطراب ، وما سفك دم احد الولاة الا نادراً وعلى يد اوغاد من الدهماء .

أبو مالك أحمد بن عمر حبشي

هو من احفاد ابراهيم ابن الاغلب الكبير ، مؤسس العائلة ؛ وكان عمدة في البلاط الاغلبى ؛ ارسل به الملك ابراهيم الثاني عاملاً على صقلية ، كأنه قد اعتمد على جاهه وفضله ومكانته ، ليرجم الى النفوس ثقتها ، وليثبت لاهل صقلية مدى اهتمام القيروان بها ، فكانت هذه الولاية اشبه بسفارة منها بامارة .

ولقد نجحت المهمة نجاحاً كبيراً ، فهدأت الثائرة واطمأنت الافكار ؛ وعاد الامن الى نصابه وانتظر الناس الفرج القريب ، في صورة مدد جسيم يفد من القيروان ويعين المسلمين على قهر شوكة الروم الذين كانوا يستعدون لأمر جسيم . وكان اهل صقلية قد طلبوا الى الملك ابراهيم ان يولى عليهم ابنه ابا العباس عبد الله لما يعرفون من مهارته في السياسة وفي الحرب ، وكما املوا على يديه من انقاذ الجزيرة تجاه الخطر الرومى ، وقد اعتقدوا ان الوالد لا يعزل ولده في مدة وجيزة ، ولا يبخل عليه بنجدة او مدد ، فتستقر بذلك امور الادارة ويستقيم بذلك امر الجهاد ، وهكذا كان .

أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب

ممثل الدولة ونائب الملك

ولقد كانت امارة ابي العباس عبد الله امارة عامة تشرف على امور البلاد ، وتراقب سير الولاة ؛ لاننا ان تصفحنا سائر كتب التاريخ التى اوردت لنا الاحاديث عن صقلية وخاصة ابن الخطيب في اعمال الاعلام وابن الاثير وغيرها رأينا ان الولاية كانت اثناء تلك المدة مداولة بين ابي العباس محمد بن الفضل

وقد كان عزل سنة (٢٧١) (١) والحسن بن احمد بن نافذ فكان الامير ابو العباس عبد الله يمثل يومئذ ما يمكن ان نسميه باصطلاح اليوم : نائب الملك او المندوب السامي . فالاعمال التي سترها مبينة اثناء ولاية هذين العالمين كانت تقع مباشرة تحت اشراف الامير ابى العباس عبد الله .

الانتصار البحري — ابتداء هذا العصر الجديد يظهر آثاره وقد كانت الحاجة

ماسة لظهار القوة امام الروم والقيام بعمل يوقف تيار هجومهم المخيف قائل شيء انجحت اليه همة نائب الملك هو اعادة النظر في امر الاسطول وتجهيزه من جديد بصفة تجعله قادرا على مقاومة العدو وكسر شوكته ؛ فبذل في سبيل ذلك همة عالية وظهر مراسا شديداً فبدت النتائج الحسنة بعد حين .

ذلك أن الروم ارادوا أن يستثمروا فوزهم السالف فارسلوا نجدة ذات قوة وبأس شديد ؛ وكانوا يريدون بها القضاء نهائيا على ملك المسلمين بصقلية .

لكن المسلمين كانوا هذه المرة على غير ما كانوا عليه في المرة السالفة ؛ كانوا مستعدين يقظين ، متنبهين ؛ فما كادت بوادر الاسطول الرومي تظهر ، وما كادت عملية انزال الجند الى البر تبدي ، حتى التحمت فوق اديم الارض وفوق عباب البحر

(١) من اغرب ما وقع لبنى العباس اثناء ضعفهم وانحلالهم ان الزنوج هاجموا مدينة البصرة واحتلوها ، ثم تدفقوا على اعمالها ، قامعوا في الحرق والنهب والسلب وانتهاك الحرمات وسفك الدماء ؛ وقاتلهم العباسيون والجند التركي مدة الى ان تمكنوا من القضاء عليهم في هذه السنة (٢٧٠) وقتل رئيسهم يهودا ؛ وقد كان يدعي انه نبي مرسل ، وكان له منبر يصعد عليه ويمعن في سب عثمان وعلي ومعاوية وطلحة والزبير ؛ فلما قتل وانتهى امر الزنوج ، زينوا بغداد وطافوا برأس يهودا على رمح .

معركة هائلة عنيفة ، لم يكن الروم ينتظرونها ؛ وكانت تلك المعركة بالنسبة للمسلمين معركة فاصلة بين طريقي الموت والحياة ، وكانوا يعلمون علم اليقين انهم ان خسروها فلام على صقلية وسلام على ملك وعمران وحضارة زاهية بها .

دامت المعركة أياماً وثبت المسلمون ثباتاً مكنهم آخر الامر من الغلبة والفوز وكانت كارثة الروم هائلة فظيعة ، اذ تركوا على اديم الارض ما يزيد عن السبعة آلاف قتيل ؛ وعندما رأوا مدى الكارثة ، ولأدوا بالفرار الى ما بقي باسطا جناحي شرعانه من مراكبهم ، غرق منهم اثناء تلك العملية نحو خمسة آلاف فرجعت بقايا الاسطول من حيث اتت ، واضطر الباقون من الروم والمسيحيين لاختلاء مراكزهم المتقدمة وما استولوا عليه من قلاع ومراكز المسلمين اثناء السنوات السالفة وفرح المسلمون يومئذ بنصر الله وقد وقع ذلك سنة ٢٧٥ (١) (٨٨٩م) قلورية — كان الروم قد تحصنوا في ارض قلورية التي يفصلها عن صقلية مجاز مسينا . وكانوا يريدون بذلك ان يحولوا دون انتشار المسلمين في الجنوب، الطلياني وأن يقطعوا الصلة بين مسلمي صقلية ومسلمي ايطاليا ؛ وعلى الاخص كانوا يريدون ان يجعلوا من قلورية مركزا لمهاجمة صقلية ولإمداد حاميات طبرمين ورمطة وغيرها فالمسلمون اغتتموا فرصة انتصارهم العظيم على اسطول الروم وعلى جندهم واغتنموا فرصة الفزع الذي ساد في اوساط المهزمين فجمعوا الاسطول والجند وهاجوا قلورية من وراء المجاز فاثبتوا بها اقدامهم ودحروا من تعرض لهم هنالك من الروم وجوع المسيحيين .

(١) في هذه السنة اكمل الامير اسماعيل زعيم بني سامان الفرس استقلا لبلاد ما وراء النهر اذ ابتداء امره بالتمركز في بخارى وسمرقند ثم اعلن انضمام بلاد خراسان لمملكته ؛ واستمرت الدولة السامانية حاكمة تلك الناحية طيلة القرن العاشر الميلادي (٩٠٠-١٠٠٠)

قدم صقلية هاتيك الاثناء محمد ابن الفضل واليا للمرة الثانية في الثاني من صفر سنة ٢٧٩ .

وكانت الاعمال مستمرة على التوالي في شبه جزيرة فلورية إلى أن أذعن الروم هنالك لعقد هدنة مداها اربعون شهراً يحتفظ اثناءها كل من الفريقين بمراكزه على ان يطلق الروم سبيل الف من اسرى المسلمين ، وان يرسل المسلمون بضع رجال بين عرب وبربر بصفة رهائن يقع استبدالهم كل ثلاثة اشهر .

فتنة عمية — ولي الامارة بعد ابن الفضل سنة ٢٨٤ ؛ الحسن ابن احمد

ابن نافذ ، تحت اشراف نائب الملك المذكور حسبما اسلفنا ؛ وكانت هنالك نار تحت الرماد ، وكانت هنالك فتنة نائمة ، فتنة العصبية الجاهلية ونار النفرة العنصرية فلامر ما نسي المسلمون الاخوة الاسلامية ؛ ونسوا عدوا يتربص بهم الدوائر دوائر السوء من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب ومن وراء العدو ؛ وقد تولى كبر هذه الفتنة جماعة من العرب وجماعة من البربر ، فكانت فتنة لم تصب الذين ظلموا خاصة واطهر سفهاء القوم من العنصرين حمية جاهلية فانغمس المسلمون في حمأة حرب اهلية قاسية ، لم يستطع العقلاء اخماد نارها ، فعم الفساد وساد الاضطراب .

ارسل ابراهيم ابن الاغلب جندا الى ولده ونائبه ابي العباس ، وجسم اليه كما يقول ابن الخطيب ، جياذ الرجال واشدهم فنزل الجند ارض صقلية في جمادى الاخيرة من سنة ٢٨٤ ، وكان قد ارسل اليهم انذاراً . واداه : انه يؤمن الناس على انفسهم واموالهم وذويهم ان هم جنحوا الى السلم وتركوا امر الفتنة ماعدا الذين تولوا كبر الحرب الاهلية ، وهم الحسن بن يزيد وولده وعبد الله الحضرمي . حارب رجال السلطة الثائرين والمفسدين وتغلبوا عليهم وشتتوا شملهم ووضعوا يد العدل فوق اعناق المجرمين ، فاما الحسن بن يزيد فقد شرب سماً ، وكانت بيده لا بيد عمرو ؛ واما الباقيون فقد نفذ فيهم امر الله وقطعت رقابهم وساروا من العار

الى النار ؟ ودخل الجند الحكومى مدينة بالرمة بعد اختام الفتنة فى العاشر من رمضان سنة ٢٨٧ ، وامن الناس واستتب الهدوء من جديد .

واقدراد الروم اغتنام تلك الفرصة ، فجمعوا اسطولهم وقدموا نحو الجزيرة لكن الفتنة الداخلية لم تمنع السهر الخارجى ، اذ صمدت فرق من اسطول المسلمين لمراكب الروم فدحرتهم ؛ وغنمت منهم ثلاثين سفينة .

ابراهيم بن الاغلب

قال ابن الخطيب فى اعلام الاعلام :

وفى سنة ٨٩ عظم المرار والوسواس على الامير ابراهيم بن احمد ونحلى لابنه الوالى بصقلية على الامر ، واستفز الناس ودعاهم الى الجهاد ، وفرق الاموال وكان وصوله الى بالرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة فرحل الخ .

نعم - لقد عظم به المرار والوسواس ، او بالاحرى عظمت به النوبات الجنونية التى تسلمت عليه طيلة ايام ملكه ؛ فرأى ان يخوض فى بحر من دماء الجهاد ، بعد ان خاض فى بحر من دماء امته وعائلته ورجال دولته ؛ فظهر الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة واستدعى من صقلية نائبه بها ، ابنه ابا العباس عبد الله فتنازل له عن عرش القيروان الذى خضبت اركانها بدماء الايرىاء ، والذي اخذت نزعته عواصف الدعوة الفاطمية ؛ ثم سار ابراهيم ليقضى بقية ايامه مجاهدا فى صقلية وايطاليا ، عسى الله يغفر له ما تقدم من ذنبه ؛ فدخل سوسة فى ثوب مرقع علامة الزهاد ؛ وسار منها على رأس جند قوي ، فنزل بالرمة وباشر هجومه العنيف .

احتلال طبرمين — كانت طبرمين يومئذ امنع مراكز الروم واعز قلاعهم

بعد سقوط سرقوسة ؛ وكان الروم يوالون ارسال المدد لها دون انقطاع عساها تكون يوما ما مبعث الموجة المقدسة التى ترجع صقلية تحت حكم الصليب القسطنطينى الرومى .

هاجم ابراهيم المدينة المحصنة بخيله ورجله ، والتعمم مع رجال الروم في معركة هائلة ، دارت رحاها بشدة لاعدد للفرقتين بها من قبل ، ورأى المسلمون شدة النصارى في الدفاع عن مدينتهم ، فاخذت ربيع الفشل تهب بين صفوفهم ، لكن ابراهيم تغلب على الموقف بحزم نادر ، فجمع جموع المسلمين وقرأ القارئ بين يديه قوله تعالى : هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ؛ يصهر به ما في بطونهم والجلود ؛ ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحملون فيها من اساور من ذهب واؤلوا ؛ ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد « فعادت الثقة الى نفوس المؤمنين وهبت عليهم رياح الجنة فانقضوا على اعدائهم كالصواعق النارية وانهزم الروم امامهم فاخذوا يتبعونهم بين وهاد الاودية واعالى الجبال فقتلوا اكثر المدافعين وتفرق الباقون شذر مذر واصبحت مدينة طبرمين مفتحة الابواب دون مدافع فدخلها ابراهيم مع جماعة المسلمين وغنم جميع ما كان الروم قد اعدوه بها من كنوز وسلاح وعدد القتال ولقد كان لفتح المسلمين لهذا المعقل النعيم اسوأ وقع في العالم المسيحي اهتزت له البلاد الرومية باسرها واعلن الامبراطور في القسطنطينية الحداد سبعة ايام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك .

فتح رمطة — لم يترك ابراهيم للروم وقتا يرجعون فيه من ذهولهم اثر نكبة طبرمين ، فسار نواً يقصد مدينة رمطة ، وهي معقل آخر الروم شرقي الجزيرة ، يقع جنوبي طبرمين ؛ ويتكون منه ومن قطانية آخر ما بقي للروم في تلك الانحاء هاجم المسلمون رمطة ، والروم لا يزالون بالموت من ضربة طبرمين ، فلم

يستطيعوا بهذه المدينة ثباتا وانهارت سريعا ، فدخلها ابراهيم ومن معه وغنموا سائر ما فيها من مال ومتاع .

في ايطاليا — لم يبق يومئذ بصقلية ما يشبع نهم الامير ابراهيم فجمع جموعه القوية ، وركب البحر مجتازا الى ارض قلورية ، وكان يقصد يومئذ الصمود منها الى الارض الطليانية ، ومنازلة دولة نابولي ، فاخترق بجموعه شبه الجزيرة القلورية ، ووصل في شمالها الى الحد الذي يفصل بينها وبين ممتلكات نابولي ، وكانت هناك قلعة كسنطة Cosenza المنيعه فخيم حولها ونصب عليها الحصار ، وامعن في التضيق عليها .

اشتد به المرض يومئذ ، فاسلم روحه لخالقها ، يوم السبت ١٨ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ (اكتوبر ٩٠٢)

لم يعلم اهل كسنطة بموت الامير ، فارسلوا وقد ضاق عليهم الخناق يطلبون الامان والتسليم ، فامنوا ، وقبل استسلامهم ، ونقلت جثة الامير ابراهيم الى باليرمة فدفن هناك وبني على قبره قصر .

سيرة ابراهيم بن الاغلب — ولي ابراهيم ملك القيروان ، وهو لا يبلغ من العمر الا ١٤ عاما ، ومات مجاهداً في ايطاليا وسنه ٤٢ سنة ، فكانت مدة ولايته ٢٨ سنة ، ارتكب اثناءها من الفظائم والآثام ما قضى به على الملك الاغلبى وكان اعظم ممدد للسبيل في وجه الدعوة الفاطمية الناشئة .

ارى ، وقد ازفت الساعة التى ستنهال فيها الدولة الاغلبية ويتغير وجه الخريطة السياسية فى الشمال الافريقى وفى صقلية ، ان انقل لك صفحة عن سيرة هذا الملك الطاغية الجبار حتى يتبين لك كيف يمحو الظلم آثار الدول وكيف تعمى القلوب التى فى الصدور ، فتسير مع اغراضها وشهواتها غير حاسبة حسابا لما يحقق بها من الاخطار .

قال ابن الاثير عن هذا الامير ، ولعله يصفه بذلك عندما ابتداء ممارسة الحكم غلاما او عندما تاب توبة الافلاس قبيل موته : وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير والاحسان ، تصدق بجميع ما يملك ووقف املاكه جميعها وكانت له فطنة عظيمة باظهار العملات »

هذه الصورة غالبة لا تمثل لك شيئا من ابراهيم الجبار الذي كان السبب الاصيل في انهيار الملك الاغربي ؛ اما ما اتفق عليه المؤرخون في شأنه فقد لخصه تلخيصا بليغا مؤرخنا التونسي العظيم احمد بر ابي الضياف ، مستمدا معلوماته من اعمال الاعلام لابن الخطيب ومن غيره ؛ واليك ما يقوله ابن ابي الضياف :

« وكان ابراهيم هذا قد ابتداء امره بحسن السيرة وسلوك ما يحمد اثره ، ثم انقلب الى ضد ما كان عليه وانسلخ من الخلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض فسمات ظنونه وتغيرت اخلاقه وفسد فكره واسرف في القتل ؛ وفي سنة ٢٦٨ فتك باهل الزاب فقتلهم وقتل اطفالهم والحافهم في الحفر ؛ وفي سنة ٢٧٧ قتل حاجبه نصر بن الصمصامة بعد ان ضربه خمسمائة سوط فما تحرك ولا نطق بكلمة ثم امر بضرب عنقه ، فقال الحاجب لمن حوله : لا تظنوا اني افزع من الموت ووعدهم انه يفتح كفه ويضمها ثلاث مرات بعد ضرب عنقه ؛ ففعل . الخ

« وفيها قتل من اهل افريقيا عددا مستكثرا منهم القاضي عبد الله بن احمد بن طالب بن سفيان عزله وحبسه ثم سمه ومنهم اسحاق بن عمران المحتسب قتله وصلبه ومنهم حاجبه فتح ضرب بالسياط حتى مات ومنهم فتيان من الصقالية وسبب ذلك انه كان له اذن صاغية لاقوال المنجمين والمتخرصين على الغيب وكانوا يقولون له انه يقتله رجل نافص وانه يمكن ان يكون فتى فكان اذا رأى احدا من فتيانهم فيه نشاط وحدة يتقلد سيفا قال هذا صاحبي فيقتله واما قتل منهم جماعة خافهم وافضى به ذلك لقتل جميعهم ، واستخدم عوضهم فتيان السودان ثم عرض له منهم

ما عرض للفتيان الصقالبة فقتلهم اجمعين ؛ وقتل ابنه المكنى بابي الاغلب وضربت عنقه بين يديه وسبب ذلك انه نعي اليه ان محمد المنجم قال لابنه انه يلي الملك ، ثم امر باحضار المنجم فقتله وقتل اخوته وكانوا ثمانية ، ومن هنائه انه افتقد منديلا كان يمسح به فيه ، وقد سقط من يد بعض جواريه فالفاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ؛ ومنها انه كان يقتل بناته ، فكانت امه اذا ولدت له بنت من احدى جواريه اخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرة فقالت له يوما وقد رأت منه رقة : يا سيدي قد ربيت لك وصائف قال نعم ؛ قالت اتراهن فقال نعم ؛ فزبنتهن وادخلتهن اليه فاستحسنهن ؛ فقالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى انت على آخرهن ، فلما خرج قال لخادم له اسود كان سيافا يقال له ميمون : امض وجئني آلا بـ رؤوسهن فتوقف استعظاما لذلك ؛ فقال له امض ويلك والا قدمتك قبلهن ، ولما دخل على امه كبر ذلك عليها فقالت له راجعه ؛ فقال لها لا سبيل لذلك ، ووقن على ما يراد بهن فصحن بالبكاء وقلن للسياف ياسيدي وما الذى اذنبنا اما ترحمنا فلم يغفر ذلك شيئا ، فقطع رؤوسهن ، ينظر بعضهن إلى بعض وجاء إليه بها معلقة بشعورهن ، فوضعها بين يديه (١) . قال لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه اعمال الاعلام عندما ذكر هذه القصة الفظيعة ما نصه : قلت اللهم لا ترحمه ، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يتعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك ، اهـ . وكان من كتابه الأديب البارع العالم احمد القديدى ، فقر به وجعل اليه اموره كلها ، ثم سخط عليه فسجنه فخطابه من محبسه برسالة بديعة تلين القلوب القاسية (هنا ذكر ابن اى الضياف

(١) من المحتمل ان تكون الدعاية العبيدية الفاطمية قد بالغت فى وصف فظائع ابن الاغلب ، واعتمدت على الاصل فاضافت لها اساطير لتسود نهائيا صفحته ، ولتتمكن من القضاء المبرم على دولته .

نصها ، وهي طويلة ، لا موجب لذكرها ، وان كانت من آيات الفن ، ختمها بقوله :
 هبني اسأت قابن العفو والكرم قد قاذى نحوك الاذعان والندم
 يا خير من مدت الايدي اليه اما ترثي لمن قد بكاه عندك القلم
 بالغت في السخط فاصفح صفح متندر ان الملوك اذا ما استرحوا رحوا
 فوقع بجهله وطغيانه تحتها . ان الملوك اذا ما استرحوا قتلوا . ووضعه في تابوت
 حتى مات جوعا وعطشا .

« وبقي ابراهيم في تونس يبدد شيعته وانصاره بالقتل ، وثار الداعي الى
 الدولة العلوية العبيدية تاكل اطراف مملكته . وكان قد اتخذ جند بلزمة (١) ، واصطفى
 من ابطالهم سبعمائة رجل ، واعتضد بهم في حراسته ، ثم بعث اليهم ابنة في جند
 وقتلهم بتمامهم . وكان ذلك اقوى الاسباب في انقراض دولة بني الاغلب ،
 وذلك ان اهل بلزمة من العرب من ابناء المغرب ، والجند الداخلين الى افريقيا عند
 افتتاحها ، واكثرهم من قيس ؟ وكانوا شجى في حاق كتمانة من البربر القائمين
 بالدعوة العبيدية ، فلما قتلوا استطالت كتمانة ووجدت السبيل الى حل عرى دولة
 بني الاغلب ؟ ومن اتبع هواه ، اعطى عدوه مناه ، وسوء الراى اشد المحاريين .

« وثار على ابراهيم اهل تونس والجزائر والاربع وباجة وقمودة ، وقدموا
 على انفسهم رجلا من الجند ؟ فانتقل ابراهيم الى رقدة وحصنها ؟ والجرأة على
 سفك الدم ، انذار بزوال الملك » انتهى ما نقلناه عن ابن ابى الضيف رحمه الله وارضاه
 الدعوة الشيعية — في هاتيك الاثناء ، والدولة الاغلبية تسبح في بحر من الدماء

قدم من المشرق ، داعي الشيعة الاسماعيلية ابو عبد الله الحسين بن احمد ونزل
 بفرجية من ارض كتمانة ؟ واخذ ينشر الدعوة المهدي المنتظر من ابناء فاطمة
 البتول ويشير الناس بقرب ظهور المهدي الذي يملا الارض عدلا بعد ما

(١) قرية على ٢٧ كيلو مترا في الشمال الغربي من مدينة باتنة .

ملئت جوراً ؛ فالتفت حوله كتامة المنعشة للحكم الناقمة على الدول الهرمة التي كانت تفتسم يومئذ ارض الشمال الافريقي : دولة الاغالبية في الشرق ودولة الرستميين في الوسط ودولة بني ادريس في الغرب ، واخذ يدعو جهارا لعبيد الله المهدي ؛ ويجمع الناس حول مذهب الشيعة الاسماعيلية العلوية ؛ فلتقت هذه الدعوة نجاحا يفوق حد التصور كأن البلاد كانت تنتظر الحاكم الحقيقي الذي يوحد صفوفها ويجمع كামتها ويرفع فوقها لواء العدل والحكم النزيه وخاصة ان الدعوة لآل علي وابناء فاطمة كانت تصادف هوى في النفوس وكان الناس يأملون على يد احفاد محمد صلى الله عليه وسلم اصلاح الحال ورفع المظالم واعلاء كلمة الله .

قال مؤرخنا الكبير احمد بن ابى الضيف في شان الشيعة الفاطمية : ولا يظن في القوم انهم من الغلاة المدحوض غلوهم عند ائمة الشيعة ، كما لا يظن بهم انهم ممن يكفر الصحابة رضي الله عنهم ؛ وقصارى امرهم تفضيل علي عـلى الشيخين مع اعتقادهم صحة امامتهما عند جددهم سيدنا علي ؛ حيث قبل جارية من سبي عمر وهي الحنفية واولدها ابنه محمد ، ويستندون في هذا التفضيل الى احاديث لم يوافقهم على المراد بها اكثر اهل العلم ، ولهم نزغات يستندون فيها الى ما يؤثر على بعض اهل البيت وانكار العلماء عليهم من حيث البدعة ؛ واهل افريقيا يدينون بحب علي وآله يستوى في ذلك عالمهم وجاهاهم ، جبهة في طباعهم حتى ان نسوانهم عند طلق الولادة ينادون : يا محمد يا علي . الى ان يقول : وقوة المحبة لآل البيت مع الاعتراف بالفضل والمحبة لغيرهم ليس من الرفض في شيء ، والله يقول : « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » ولا يخلو مسلم من هذا الحب ، ورحم الله الشافعى اذ يقول :

ان كان رفض حب آل محمد فليشهد الثقلان انى رافضى

كان عبيد الله المهدي قد وقع بين يدي الاغالبية فسجن ، وكان عبدالله بن

الحسن الصنعاني يجمع الجوع ويحيش الجيوش ويستولى على اطراف البلاد معتمداً على سواعد كتامة وحرابهم الشديدة ، فدانت له البلاد دون مقاومة تذكر ، حتى وقف وراءه مئات من الالوف ، يستعد للوثبة النهائية وتحطيم دولة الاغلبة التي حطمها ابراهيم الأنف المذكور قبل ان يحطمها اعداؤه :

انهيار الدولة الاغلبية — خلف ابراهيم السفاح ابنه الذي كان كما اسلفنا يمثله في صقلية ، فكان شهماً عالي الهمة سديد النظر اراد اصلاح الحالة ورتق ما لامعن ابوه في فتقه واقد كاد ينجح وكادت الحالة تستقيم لولا ان القضاء قد حم ، وآذنت ساعة الزوال على يد شقي كتب الله عليه ان يكون هو النقطة السوداء التي تختتم صفحة ناصعة ؛ ذلك هو زيادة الله الحفير .

استولى ابو العباس عبد الله ملك القيروان ، فارسل بابنه هذا زيادة الله ليمثله في صقلية ، وليقوم على امر الجهاد والادارة فيها ؛ فما كانت ايامه هنالك سوى الاضطراب والخراب ، وقد وصلت دعوة الشيعة هاتيك الاصقاع ، واشربأت لها الكثير من النفوس ، واخذ الناس يتفرقون شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . أما زيادة الله الخبيث ، فقد قابل كل ذلك بمجالس هو وخلاعة وشراب ، كان يعقدها بقصره في بالرمة ، الى ان بلغ الارتباك درجة اضطرت ملك القيروان لاستقدام ابنه المفسد من صقلية ، فالتقاء مسجوناً مقيداً داخل داره .

اخذ هذا الشقي يستميل خدام ابيه اليه ، فتواطأ مع غلامين منهما ، ارسدا لايه حتى نام ، وهما على حراسته فاحتزا رأسه وذهبا به داميا فرميا به بين يدي الابن النذل وفكا قيوده فنادى بنفسه ملكاً واخذ البيعة العامة في شعبان سنة ٢٩٠ وبادر بالغلامين قاتلي ابيه فمثل بهما وقتلها شر قتلة دفعا لتهمة التواطؤ . معها على ذلك .

وقد رأى ان الخرق الفاطمي قد اتسع على الرافق وعلم ان لا قبل له بدفع تلك

الكارثة الا باعتماد على الخليفة العباسي المكتفي بالله عليه يرسل له جندا يعينه على دحر قوى الصنعاني الخيمة على اطراف المملكة . فارسل للخليفة هدية فيها نفائس كثيرة منها عشرة آلاف دينار زنة الواحد منها عشرة مثاقيل وقد كتب على وجهها:

يا سائراً نحسو الخليفة قبل له ان قد كفك الله امرك كله
بزيادة الله بن عبد الله سيد ف الله من دون الخليفة سله
ما ينبري لك بالشقاق منافق الا استباح حريمه واذله
من لا يرى لك طاعة فالله قد اعماه عن سبل الهوى واضله

ولو انه جهز بذلك الذهب العزيز جنداً ، واصطنع به رجالا لكان ذلك اجدى للملكه وانفع لأن انتصابه مدافعا عن خلافة العباسيين دون دعوة الفاطميين لم نجده نفعاً ، فان عبد الله الصنعاني قد وثبت وثبته النهائية فكانت معركة الاربع الهائلة التي تفرق فيها جيش الاغالبه بعد ان مات اكثرهم وذلك سنة ٢٩٠ فجمع زيادة الله ، او نقصان الله ما استطاع جمعه من مال ومتاع ؛ وشد رحاله الى المشرق تاركاً ملك الاغلب يبيكي من بناءه ، فاقام بمصر ينتظر مدد الخليفة وينتظر تنفيذه عامل مصر اوامر الخليفة ولم تكن حالة مصر يومئذ ازهى ولا ازهر من حالة افريقيا فبعد ايام قضاها زيادة الله في القدس الشريف يلهو ويلعب ويبعث ويطلب قبض الله روحه الشقية بالرمل سنة ٣٠٣ (١)

(١) كانت الحرب حامية الوطيس في بلاد الاندلس بين الملك اردونيو ؛ الذي جمع شتات البلاد المسيحية هنالك وتصدى لحرب المسلمين وبين الخليفة عبد الرحمان الثالث ؛ فاندحر عبد الرحمان اول الامر ثم اعاد الكرة فانتصر واحتل طليطلة ثم انكسر ثانيا سنة ٣٠٦ وعقد هدنة لثلاثة أعوام ؛ فلما انقضى اجلها وكان قد جمع جنداً عتيداً هاجم المملكة الاسبانية فشنت شملها ودحر جندها واستولى على بلادها واندفع وراء جبال اليرينات في فرنسا .

وهكذا انهارت دولة بني الاغلب العتيبة التي كانت من اغرب ممالك المسلمين واكثرها مدنية ونظاما واحسنها جهادا وامعنها عمرا نأ .

قال فيكتور بيكي في كتابه الآنف الذكر : مدينتي الشمال الافريقي « لولا ان الاغلبة جمعوا الى جانب خلاصهم العسكرية الانهمالك في المذات والشموات لاستطاعوا ان يمدوا في اجل تفوق العنصر العربي بهذه الديار ؛ لذنهم سقطوا تحت عنف الضربات البربرية الواردة من ناحية المغرب ، وكان بسقوط الاغلبة سقوط النفوذ العربي ، وانهيار السنة تحت موجة الشيعة الظافرة . »

العبيدون بالقيروان — دخل ابو عبد الله الصنعاني مدينة القيروان ظافرا

منصورا وكان عبيد الله سجيناً مع ابنه ابي القاسم في مدينة سجلماسة عند اميرها فخرج علماء المدينة واهل المقد والحل فيها للقاء الصنعاني وهنؤوه بالنصر والفوز وسالوه لمن يخطبون في صلاة الجمعة فلم يعين لهم احدا لانه لم يكن يعلم مال عبيد الله انما امرهم بالدعاء لمن نصر الدين . واعلن ابو عبد الله الامان العام للناس في اموالهم واعراضهم وحرىاتهم وصادر اموال زيادة الله الاغابي الهارب وحفظ سلاحه وجواربه ثم نقش على النقود من وجهها الايمن بلغت حجة الله ومن وجهها الآخر تفرق اعداء الله ونش على الاسلحة عدة في سبيل الله ووسم الخيل الملك لله .

ثم استخلف اخاه على القيروان ونهض في وثبة جريئة الى سجلماسة بالمغرب الاقصى فاخرج من السجن الشريف عبيد الله وجاء به مبجلا مكرما وهو يمشي بين يديه حتى ادخله القيروان ثم سار به الى قرية رقادة التي كانت يومئذ (فرساي) تونس وفيها قصر الملك الاغابي الذي كان آية من آيات الفن والجمال وهناك في ربيع سنة ٢٩٧ بايعه العلماء والفقهاء وخاصة الناس وعامتهم وكان عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق يبلغ من العمر ٣٧ سنة مهيب الطلعة عالما شجاعا كأنه خلق ليكون رأس دولة وزعيم ملك ، وكل ميسر لما خلق له .

تأسيس المهديّة — لم يطب المقام لعبيد الله المهدي بقصر رقادة ووجد ان القيروان البعيدة عن البحر لا تصلح عاصمة لدولة وضعت بالمغرب اقدامها الثابتة ، ورمّت الى المشرق بانظارها الطامعة ، وقد رأت من اختلال امر الدولة العباسية ومن امرائها بمصر الذين يطيعونها اسماً ويستبدون بالامر فعلاً ، ما جعلها تستعد وتمعن في الاستعداد الموثوب على تلك الاصفاع محاولة جمع كلمة العالم الاسلامي من جديد تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني فاطمة ؛ كما حاول من قبل تلك المحاولة الذين تولوا كبر تحطيم الدولة الاموية ، لجمع الامة تحت لواء الدعوة لآل البيت من بني العباس .

طاف المهدي بنفسه على رأس حاشية مخفّارة ، سائر السواحل الشرقية التونسية من قرطاجنة الى الجنوب ، فاختر الموقع البديم في الساحل الذي امر بان تبنى فيه المدينة الجديدة التي تحمل الى الابد اسمه « المهديّة » فابتدأ البناءون في العمل سنة ٣٠٠ (١) وانتهوا منه سنة ٣٠٨ ، فانتقل اليها برجاله وامواله وجنوده وسكنها معه اصحاب الدولة واعيان القوم ، فاصبحت مدينة من ازهى وازهر مدن المسلمين .

محمد السر قوسي

بعد هذه البسطة الوجيزة عن انهيار الدولة الاغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وسرى آثار هذا الانقلاب العظيم في جزيرة صقلية ؛ نعود الآن لحوادث الجزيرة اثناء هذا العهد المضطرب .

(١) في هذه السنة تولى الخلافة ببلاد الاندلس عبد الرحمان الناصر ، وهو اول من لقب بالخليفة هنالك ، واندفع في ميدان الانشاء والتكوين ؛ فاخط مدينة « الزهراء » البديعة واتخذها دار ملكه ؛ وانشأ في قرطبة وغيرها عدداً جسيماً من الابنية والقصور والبساتين ودور الصناعة ؛ واصبحت في ايامه قرطبة كعبة العالم يقصدها طلاب العلم من كل صقع .

بعد موت ابراهيم بن الاغلب المجنون ، محاصراً مدينة كسنه ، استولى ابنه ومثله بصقلية ، ابو العباس ملك القيروان ، فارسل ابنه زيادة الله ممثلاً له بالجزيرة فخلاً الى الله والطرب والشراب حتى استقدمه ابوه وحبسه وكان من امره ما رأيت في الصفحات السالفة اذ قتل اياه وانتصب في القيروان ملكاً ، كتب الله عليه ان يسجل التاريخ له انهيار دولة بني الاغلب على يديه .

كان محمد السرقوسي ابرز ولادة هذا العهد المضطرب ، وقد حاول ، ونجح في بعض الاحيان تسكين الثائرة وتهذبة الخواطر وجمع الكلمة ريثما تسفر حالة افريقية عن امره ، وتوفاه الله اليه سنة ٢٩٠ .

علي بن محمد بن أبي الفوارس

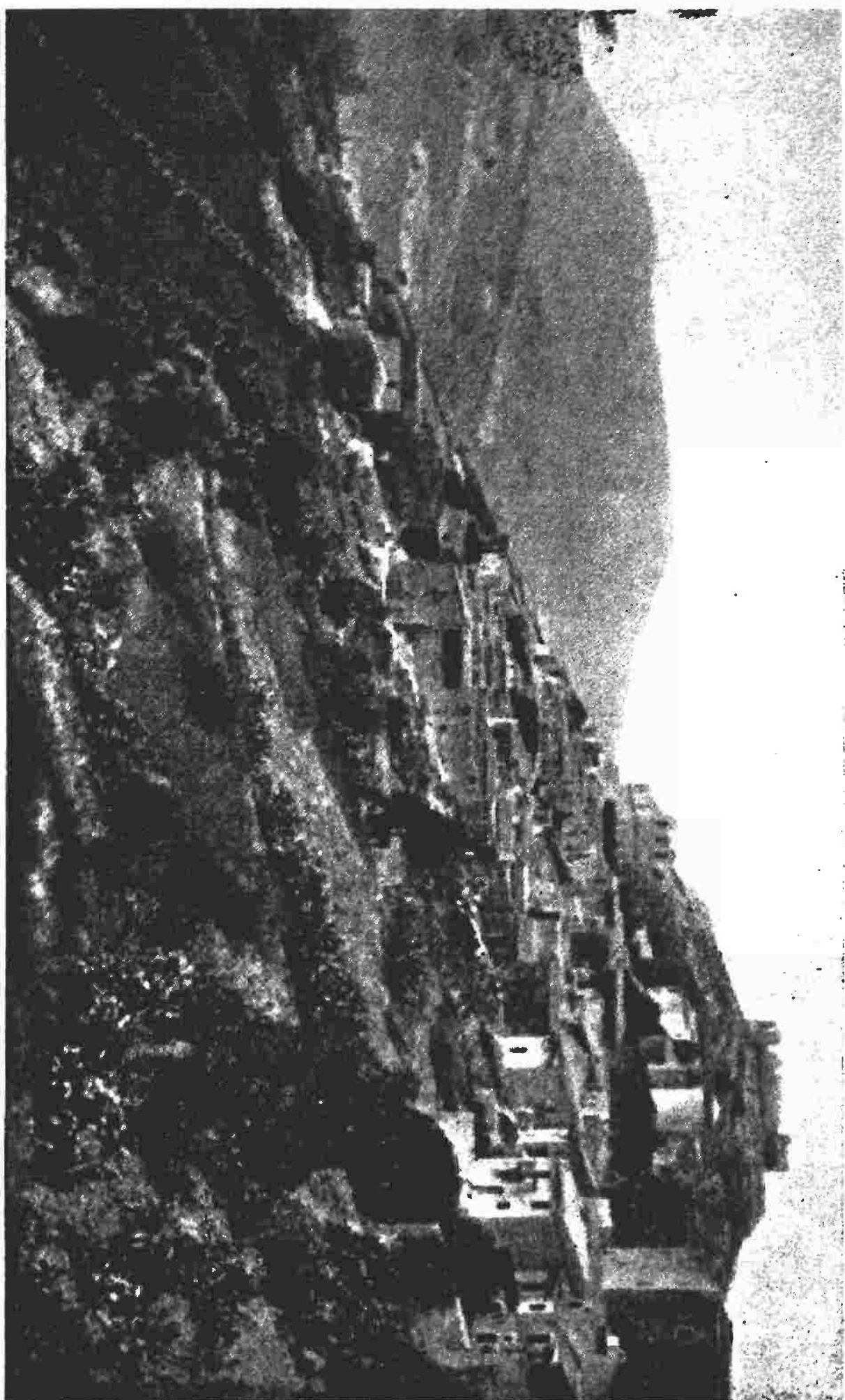
واحمد بن ابي الحسين بن رباح

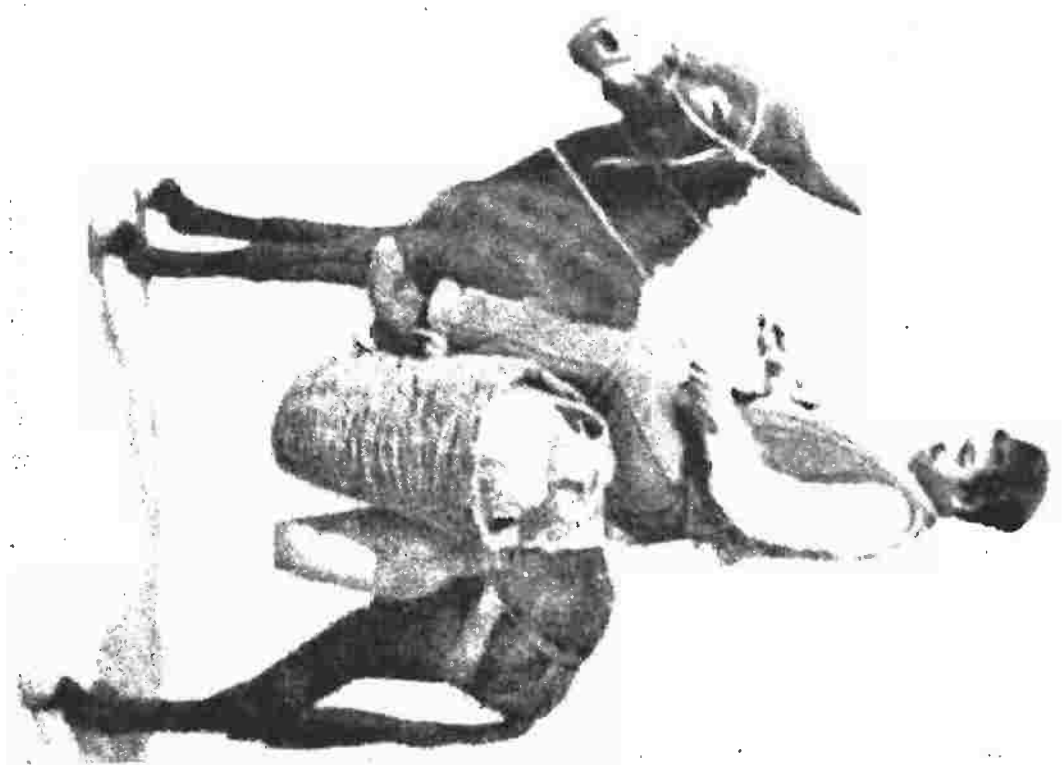
اولى الناس امرهم علي بن محمد ودانوا بطاعته ، ورجوا ان يتمكن من انجاز عمل محمد السرقوسي في تمهيد الامن وجمع الكلمة ، وراسلوا امير القيروان زيادة الله في ذلك فامتنع من المصادقة وارسل من قبله واليا على صقلية الامير احمد بن ابي الحسين فما قبله اهل الجزيرة الاعلى مضض ، وان كان قد عمل اثناء ولايته على حفظ الجزيرة وصيانتها ضد كل اعتداء من الخارج وضد محاولات الفوضى من الداخل .

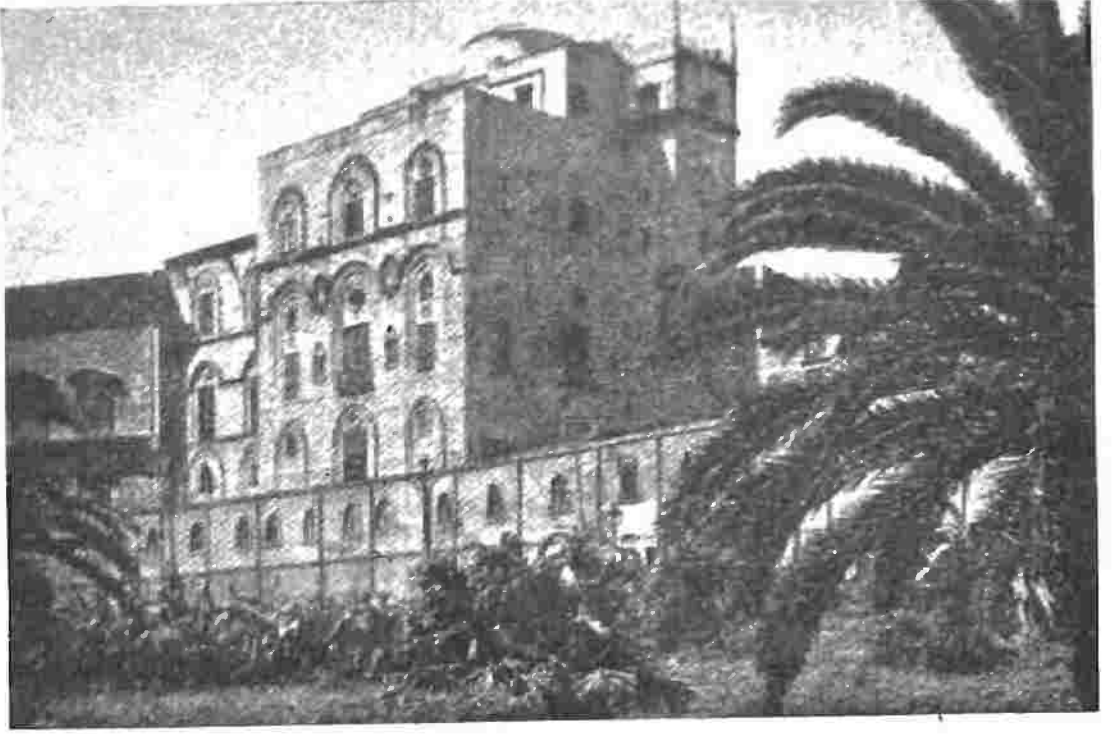
عندما بلغ اهل صقلية نبأ انهيار دولة بني الاغلب وفرار زيادة الله آخر ملوكها ، ثاروا بالامير احمد بن ابي الحسين فحبسوه واعادوا للولاية على بن محمد وذلك يوم ١٠ رجب ٢٩٦ (٩٠٨) وراسلوا ابا عبد الله الصنعاني داعية المهدي يطلبون اليه المصادقة على الوالي الجديد ويعلمون الانضمام الدعوة الفاطمية والقيام بامرها ، فصادق ابو عبد الله على ذلك وراسل الامير الجديد بقره على عمله وبوصيه بالتقوى والجهاد والثبات في سبيل الله . لكن ايام هذا الوالي لم تدم طويلاً ، اذ

ان العبيدين ما صادقوا على توليته الا بصفة مؤقتة ريثما يستتب لهم الامر وتدين لهم سائر البلاد بالطاعة والالتقياد ، فعندما تم لهم ذلك استقدموا احمد بن ابي الحسين وامروه بان يستقر في رقادة ولا يبرحها ، وارسلوا من قبلهم اول ولاتهم نحو الجزيرة وهو الحسن بن احمد .

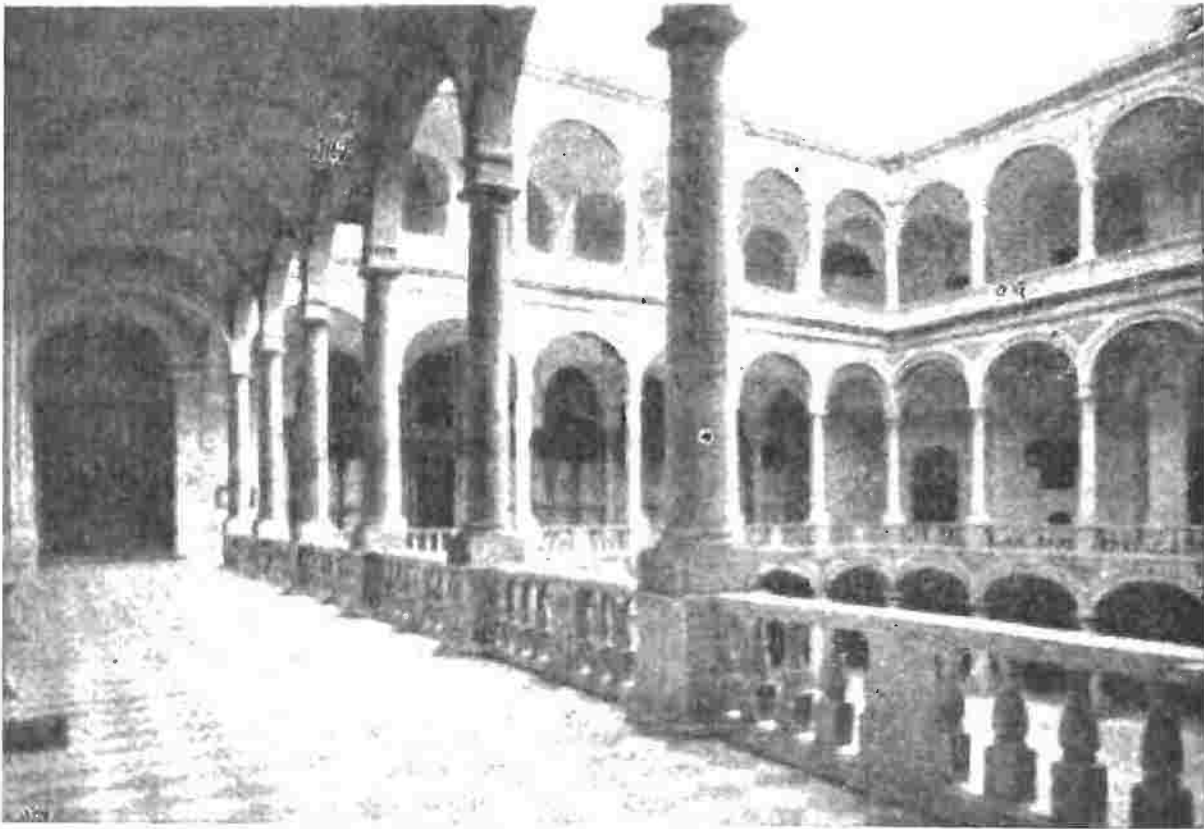
فتكون ايام الحكم الاغلبى بجزيرة صقلية ؛ منذ افتتاحها على يد اسد بن افرات سنة ٢١٢ ، الى يوم اعلنت الجزيرة اعتناقها دعوة الفواطم سنة ٢٩٦ ؛ ٨٤ سنة ، مضت كلها في جهاد شريف ونضال عنيف وتمهدت فيها سبل الامن واستقرت الراحة في المدن والقرى ، ولم يكن الاضطراب الذى ساد آخر الايام مانعا للناس عامتهم وخاصتهم من انجاز اعمالهم العمرانية التمدينية ، فكان الخلاف حول الحكم والولاية يكاد يكون خاصاً ببعض الطبقات ؛ اما بقية الناس فكانت دائبة على اشغالها قصاراها من امور الدولة انها تجدد دائماً القاضى النزيب الذى يفض ما يقع بين الناس من مشاكل وتدفع زكواتها بنظام لمثل السلطة مهما كان اسم متولى الامر .



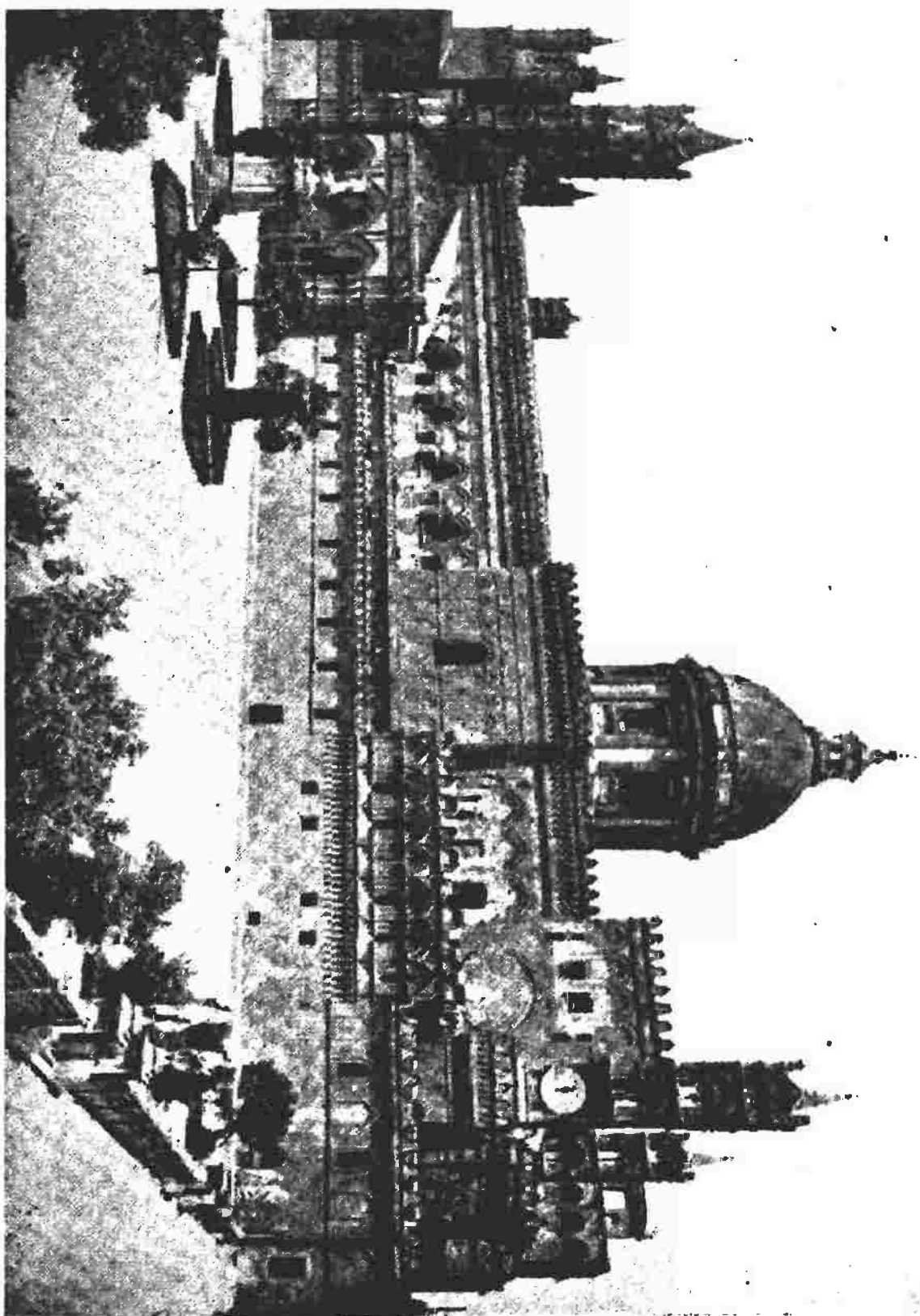




القصر المـسـيـكي بـيـالـرمة من الخارج



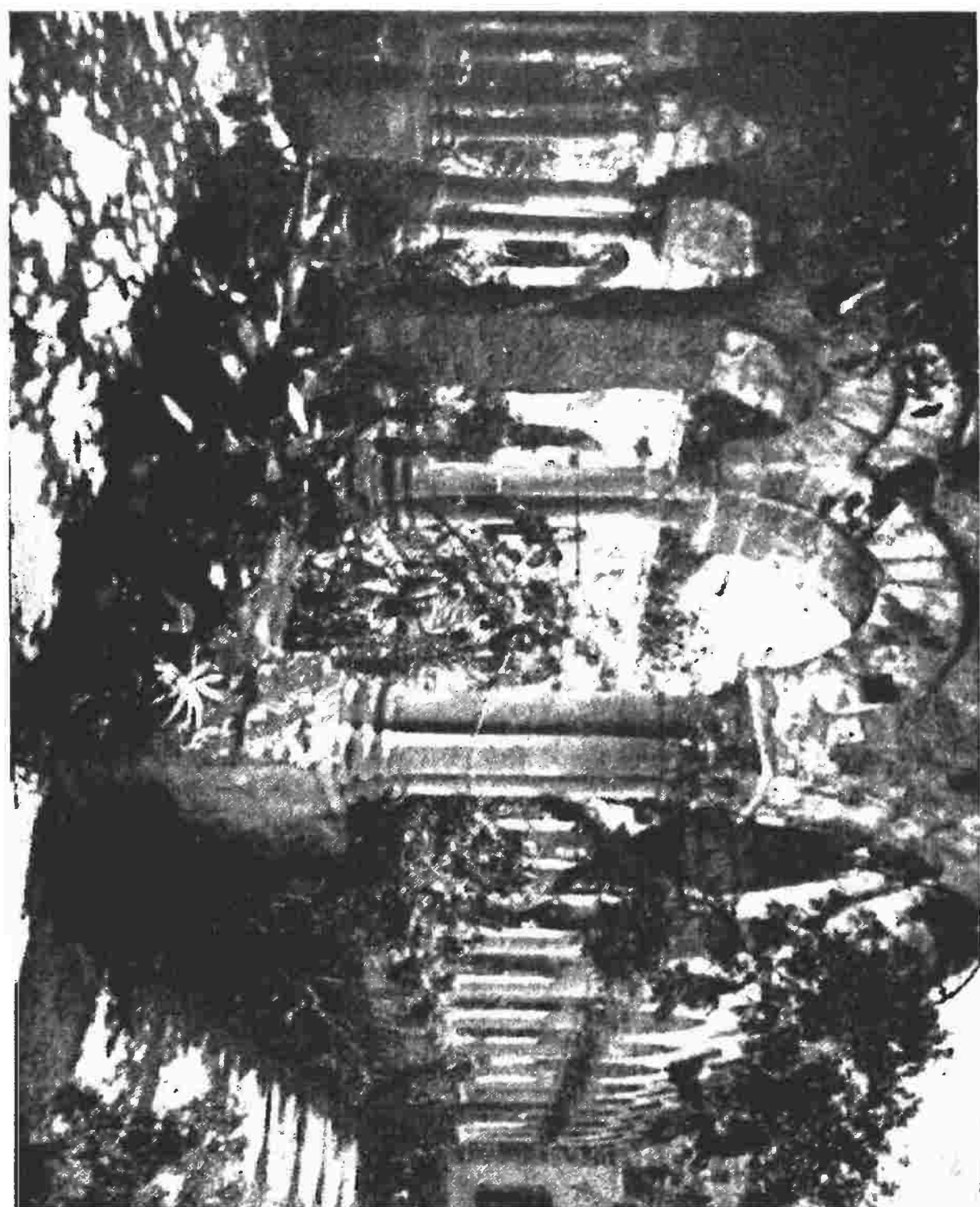
القصر المـسـيـكي بـيـالـرمة من الداخل

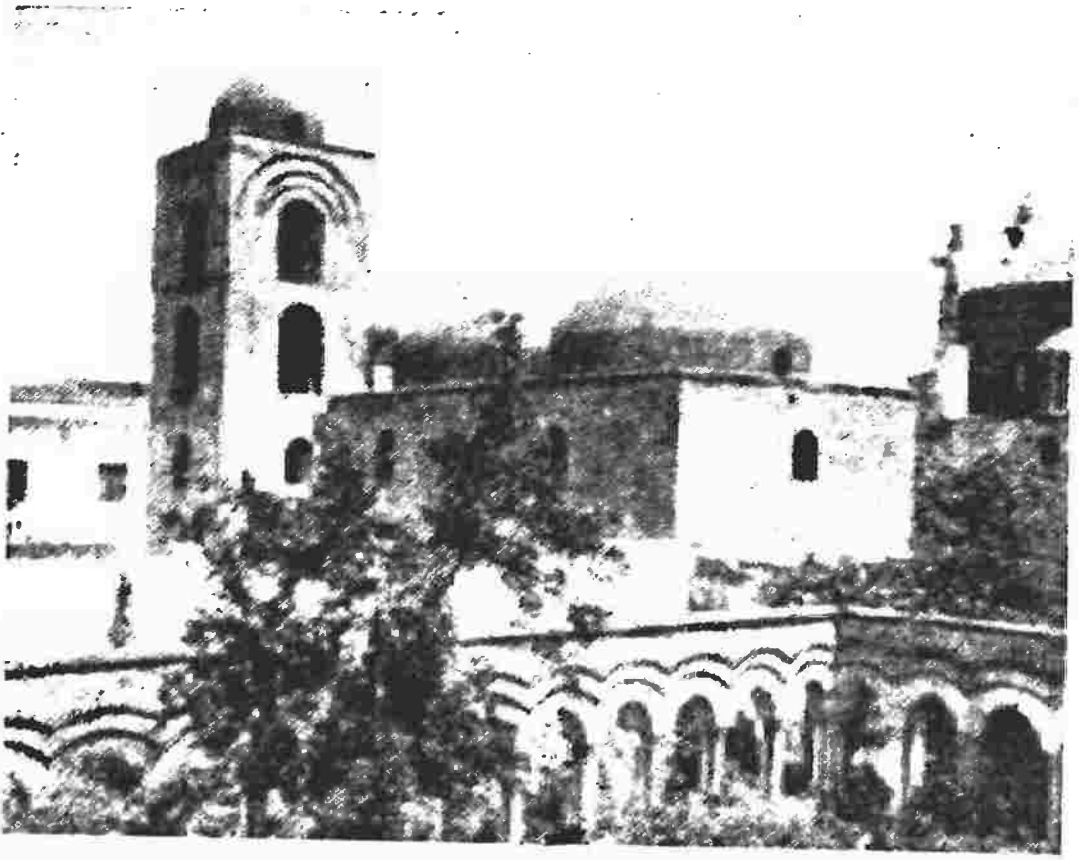




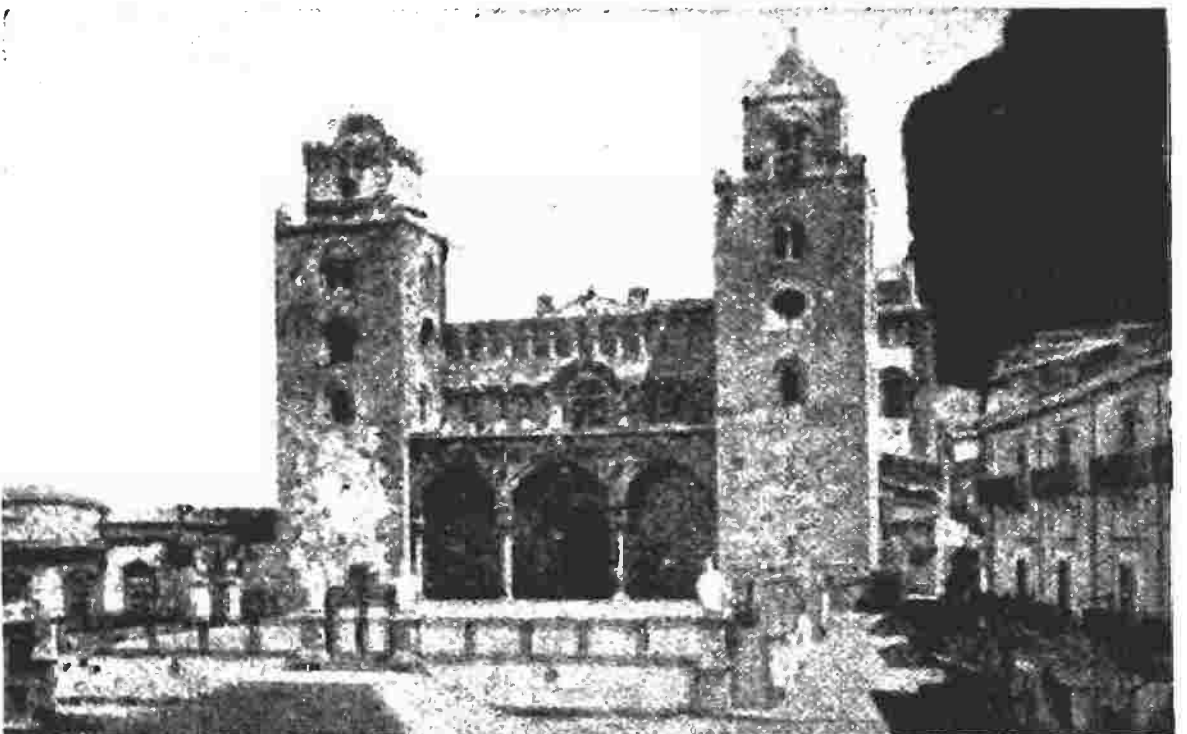
الملك رجار الثاني

فسيفساء تمثله واحد القديسين يضع على رأسه تاج الملك

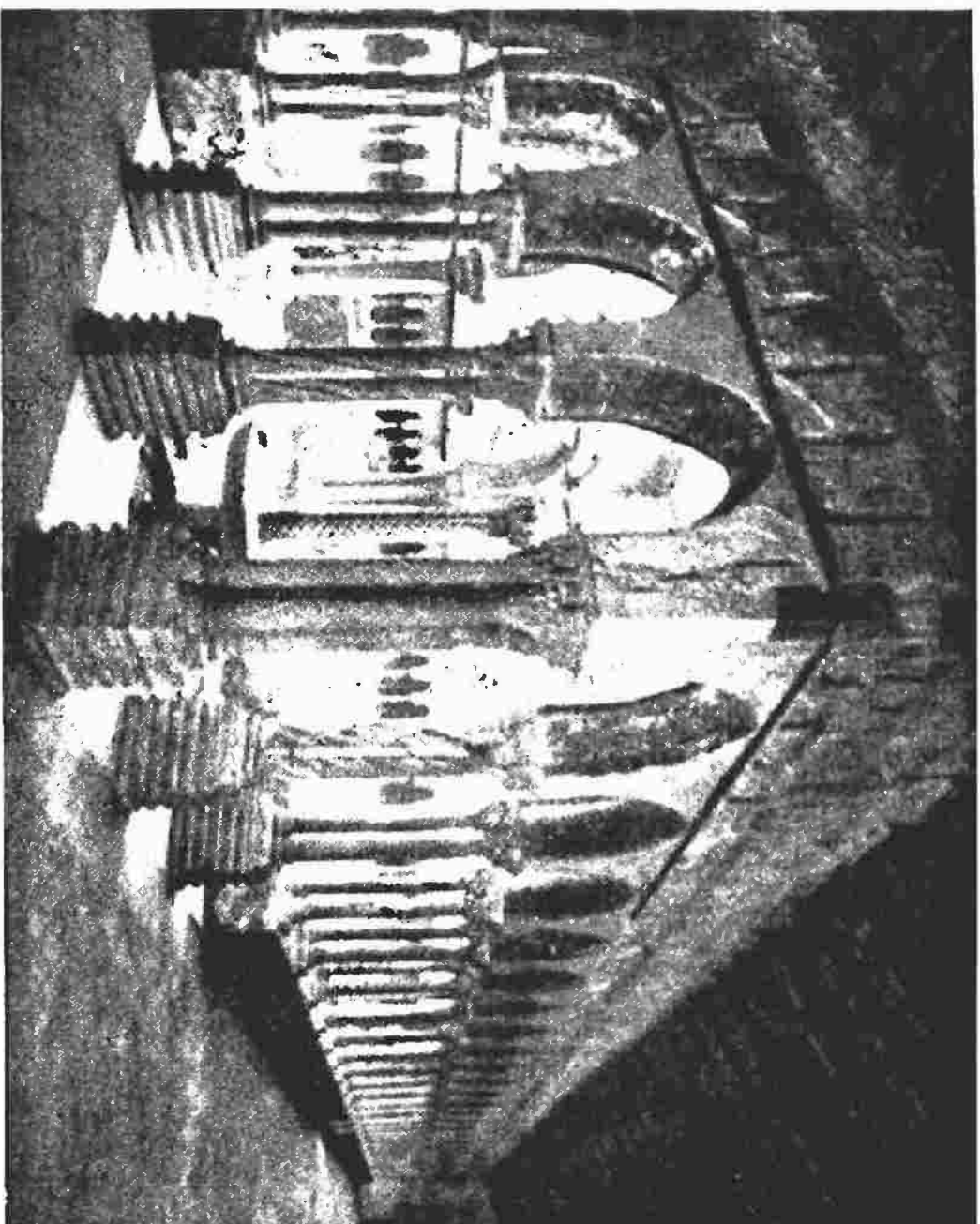




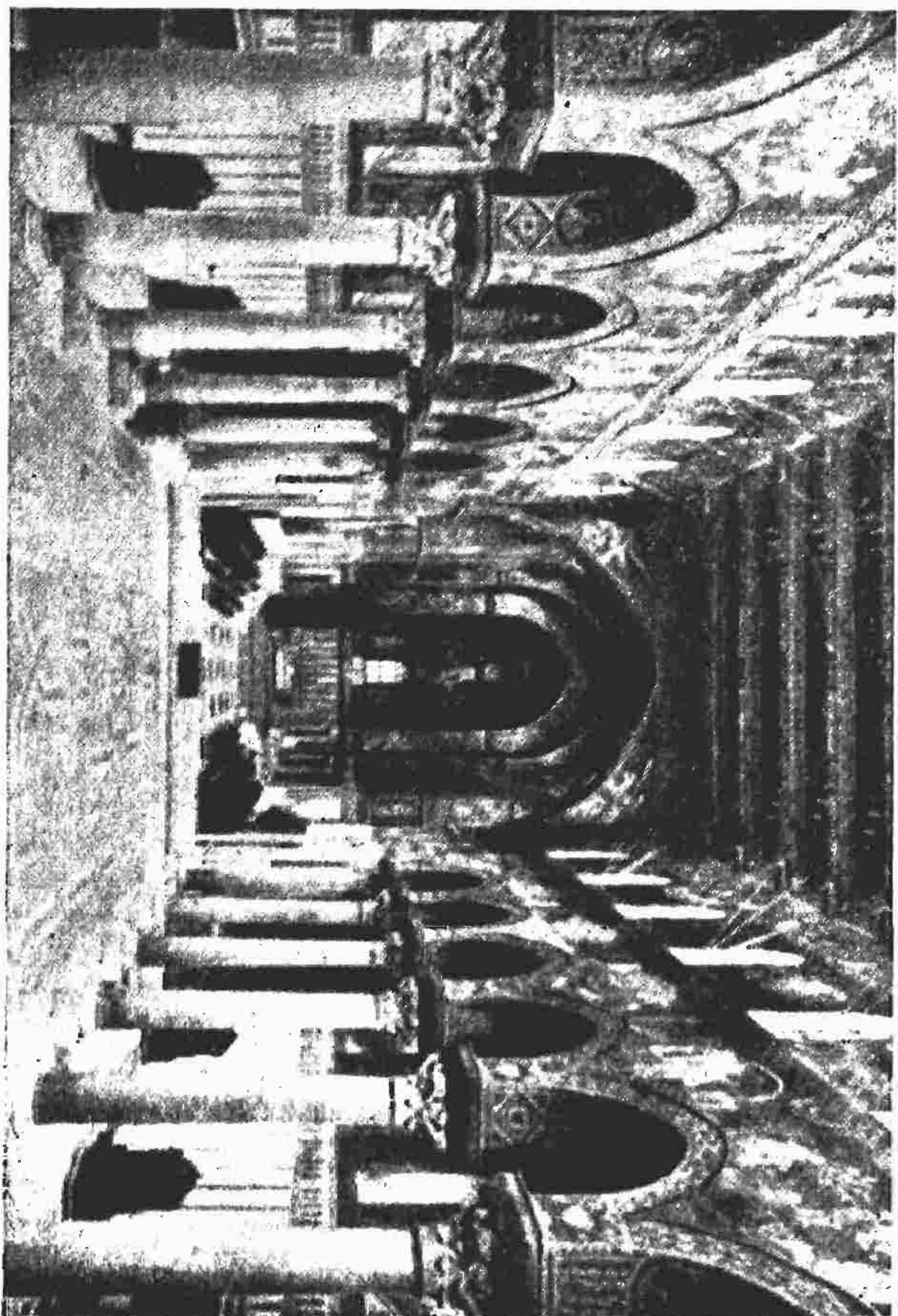
مكتبة القديس حنا



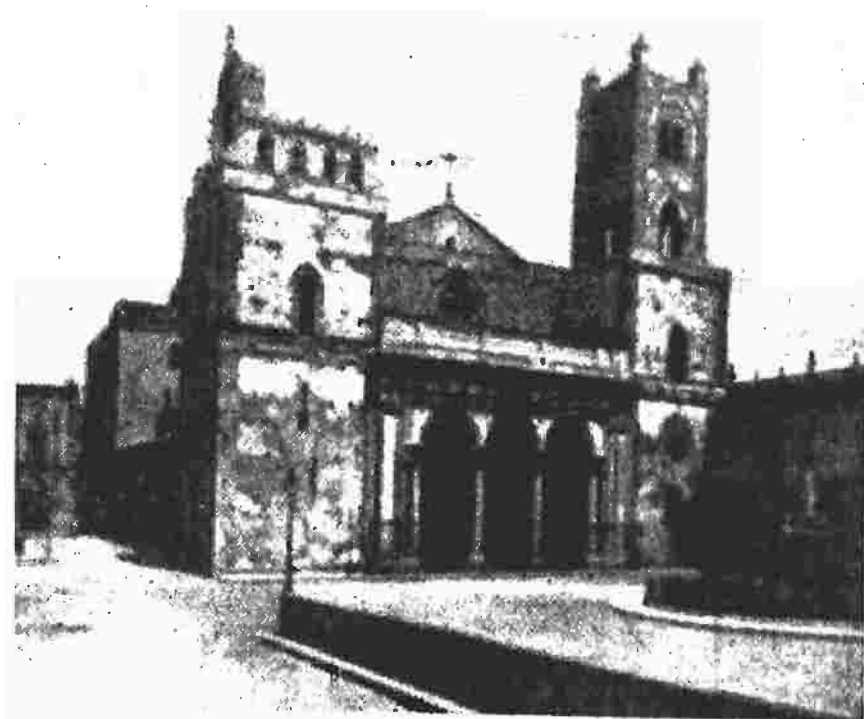
كاتدرائية سيفالو



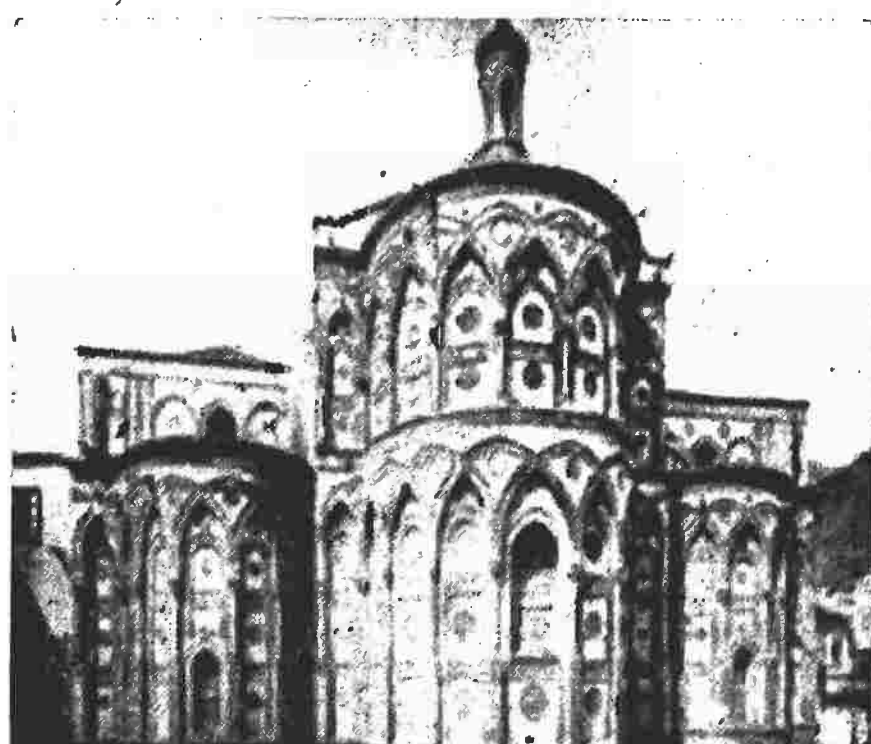
دير الموزين

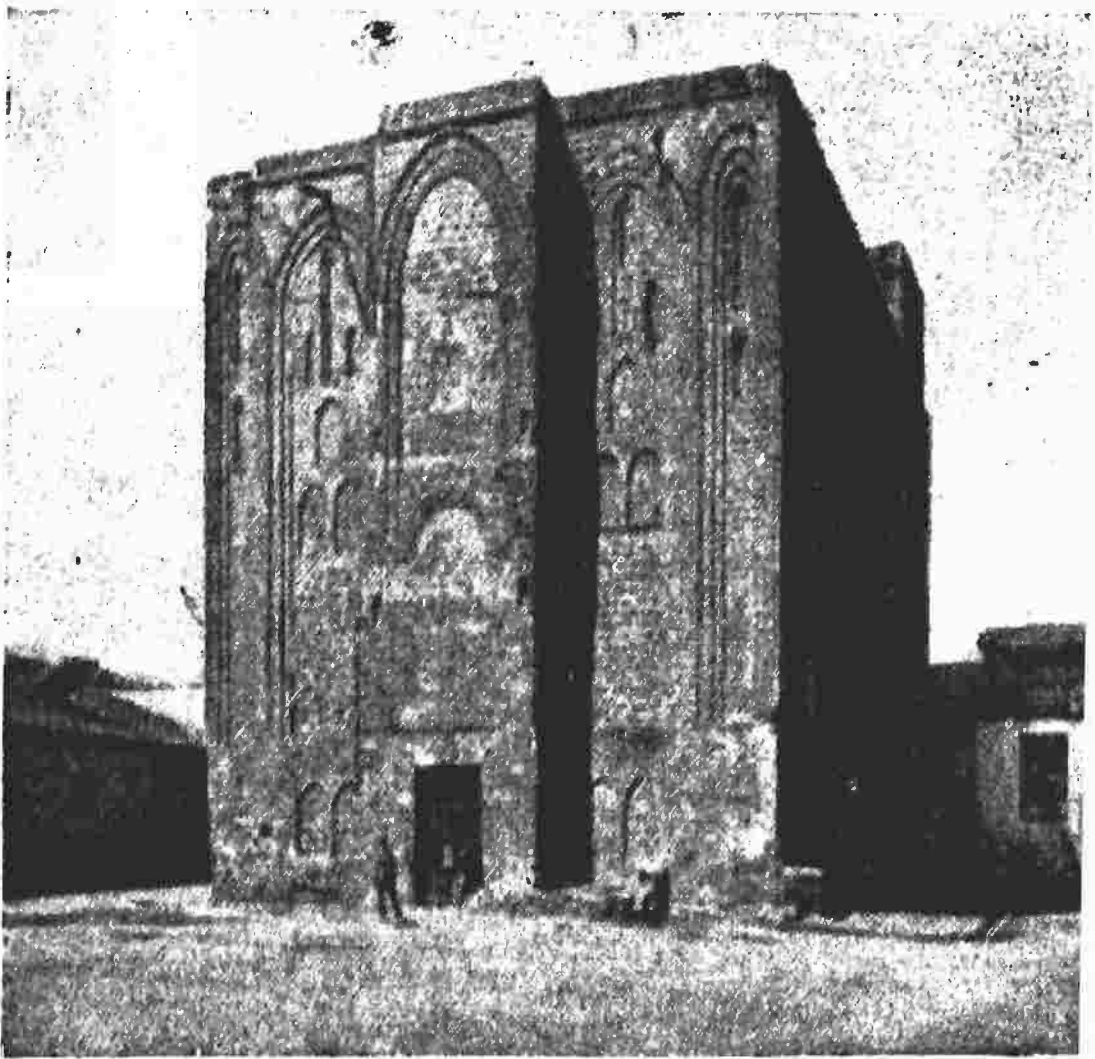


کاتدرائیه المونریمال



منظران خارجیان ا.کاتدرائیه موزریال





قصر القبلة

من آثار المسلمين بضم واحة بالرهة



LA ZIZA

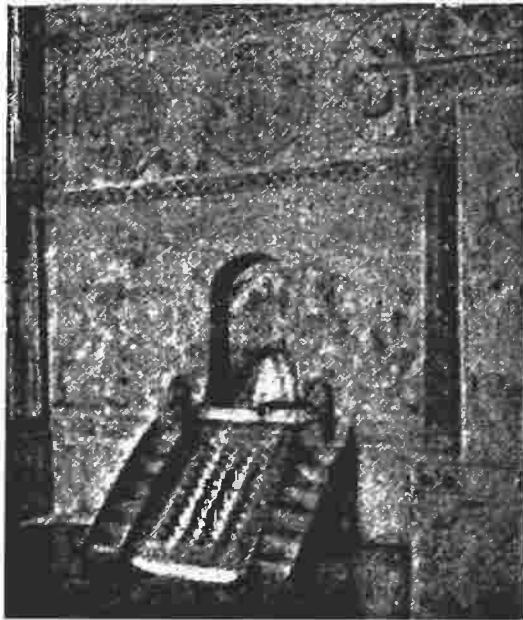
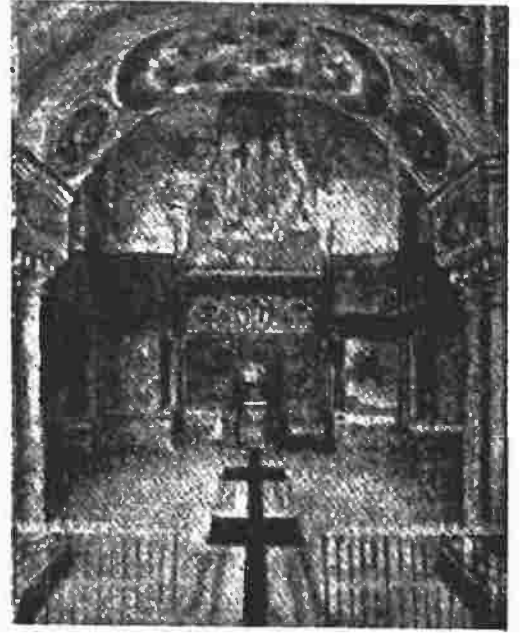
قصر العزيز

من آثار المسلمين بضواحي بالرمة



فسيفساء من صنع المسلمين بقصر العزيز

القاعة الكبرى
بقصر العزيز

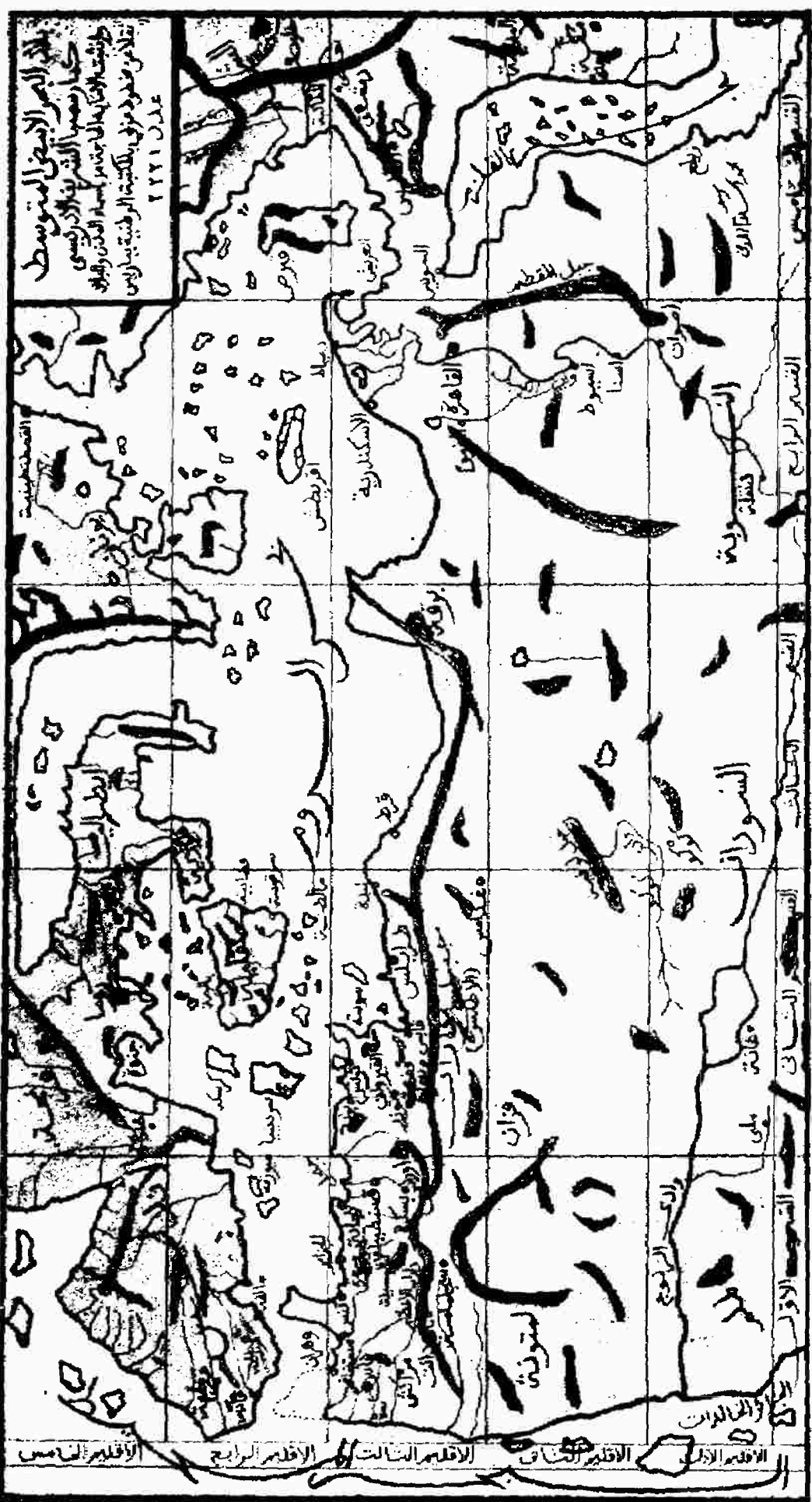


العين الجارية بالقاعة
الكبرى . بقصر العزيز



«رداء حيريزي» رسم فيه نمر يقترب من جلاد، وحوله كتابة كوفية، تشير الى انه
 صنع سنة ٥٢٨ هـ. بريد للملك رجار الثاني، وكان ملك الترمين و اباطرة الامان بعدهم
 يريدونه في حملة التتويج وهو محفوظ بمتحف مدينة نور بيرغ وصنع على نمط صنم

بلد البحر الأبيض المتوسط
 كما رسمها الدكتور بن الأريسي
 طوشت الأمانة العامة باسم الدكتور
 تلام من خطوط من في المكتبة الوطنية بباريس
 عدد ٢٢٢١



الأقليم الأول / الأقليم الثاني / الأقليم الثالث / الأقليم الرابع / الأقليم الخامس